أنطون ماركلوند

أصدقاء الحيوان

رواية

ترجمة: حميد كشكولي

أنطون ماركلوند

أصدقاء الحيوان

رواية

يوحنّا

كانت تمشي متكئةً على كرسيّها الجوّال، بهدوء شديد، كعادة العجائز، وما لبثت أن انعطفت نحو طريق فرعية، حيث تتراكم الثلوج المتساقطة منذ أمس. ضحكنا عندما سقطت على الأرض، ولم نتوقف عن الضحك إلا حين شاهدناها وهي لا تقوى على النهوض، إذ لم يعد المشهد مسلّياً بعد ذلك، فأخذنا حقيبتها اليدوية.

أخذتُ حقيبتها الجلدية أثناء تركنا المكان، وتلطخت يداي بدمها، فمسحتُه بالحقيبة مما ترك بقعاً من دم العجوز عليها. في البداية مشينا مسرعين عبر الدروب، ثم أخذنا نعدو، بينما كان علينا أن نفعل العكس. لم نقم بسرقة العجوز بشكل مباشر وقد قلت هذا لأمّي.

قلتُ: «لم تعد في حاجة إلى الحقيبة»، وأضفت: «لقد سقطت من تلقاء نفسها، وكان على المرء أن يفعل ما فعلناه، وحقاً، *حسناً* ما فعلنا».

أخرجنا ما كان في محفظتها الموجودة في حقيبتها من أوراق نقدية قبل أن نرميها في الساقية، وهذا في الواقع ما لا يحق للمرء فعله. لكنه كان استرداداً أكثر مما هو سرقة، فوالدي يقول: *لا تفوّت أية فرصة تسنح لك أبدا!*

كانت لدى العجوز سبعة آلاف كرونه في محفظتها. وحين التقط نيكلاس الأوراق النقدية قال: إنّ *العجائز يحملن معهن عادة مبالغ كبيرة من المال في حقائبهن*

اليدوية.

كانت حصتي ألف كرونه بينما حصل كل واحد من الآخرين على ألفين، ولم يزعجني أن حصصهم كانت أكبر، إذ كان المبلغ سبعة آلاف كرونه ولم يكن ممكناً أن يحصل كل واحد منّا على ألفين. عرفتُ أن أمي لم تكن مرتاحة لما قمنا به، فأخذتُ حصتي إلى البيت وأعطيتها الألف كرونه، لكنها على عكس ما تصورتُ، لم تفرح بذلك ولو قليلاً، بل أخذت تبكي.

الفصل الأول

أوراق السعادة

مونا

أفكر أحياناً في الحياة كأنّها فيلم، فتصبح المسائل سهلة الإدراك بطريقة ما، أو ربّما يكون قبولها كما هي أسهل من أن نفهمها.

إن كان المرء يعتبر ما يراه بعينيه فقط هو الشيء الوحيد الموجود *والمتاح*، فلا مهرب من أن يعاني من فراغ كبير أو من المرارة. أمام المرء بدائل ويمكنه أن يختار منها. وثمة الكثير من الناس الذين يختارون المرارة، فهي على الأقل مجرد شعور.

زوجي اختار المرارة، اختار أن يُستهلَك، منذ الوقت الذي كان فيه يوحنا صغيراً، وكان يبدو للعيان أنه ليس مثل الآخرين. اختار ليئارت أن يرى الأشياء كما ***ينبغي*** عليها أن تكون، بدلاً من أن يراها كما هي موجودة أصلاً.

أرى اختياره خاطئاً، لأنه حين يرى الحياة فيلماً، لا بدّ لها من أن تكون فيلماً. و في الفيلم يكون للخيبات معنى. إنه الألم الذي لا يُفهم، ولا نريد مواصلته أملاً بنهاية سعيدة.

في هذا الفيلم يجلس أحد الأولاد، أو بالأحرى أحد الشباب، مع والدته في المقاعد الخلفية في سيارة فضية اللون كبيرة. احمرّت عيون الوالدة، وتورمت من البكاء. كانت ترتدي معطفاً أسود يبدو عتيقاً، وتبدو خجولة بعض الشيء من معطفها القديم. فكرت مع نفسها: ***كان ينبغي أن أكون أنيقة الملبس***، مثله، إذ إنّ الانطباع الأول مهمٌ.

كان الولد يرتدي بذلته الخاصة بالامتحانات. وحينما أتى رجلان في السيارة الفضية ليأخذاه معهما، كان جالساً في الرواق. صندوق خشبي على ركبتيه، وهو ينتظر، على الرغم من برودة الجو وقد مضى وقت طويل على مجيء الخريف، ريثما يأتي الرجلان، صعد إلى غرفته، ارتدى بذلته، أخذ الصندوق، وخرج من الغرفة وجلس. لم ينظر إليهما عندما وصلا، وسلّم عليهما بعد أن قال له والده أن يفعل ذلك. تمتم ليئارت من مكانه عند فتح الباب «صافخ!». وقف ليئارت في منتصف الممر في الصالة، كأنه يحاول أن يختفي في الظلام. وهو أيضاً لم ينظر إليهما.

تكلم أحد الرجلين وبقي الآخر في السيارة، متشنجاً، متكئاً على المقود بذراعيه المتشابكتين. كان لا يحضر إلا عندما يكون يوحنّا عنيفاً.

قال الرجل الأول بصوت نشاز حين تقدم من يوحنّا: «حسب علمي أنت يوحنّا». وأردف مصافحاً يوحنّا: «نريد أن نعرف ما يمكننا فعله لأجلك»، تحوم في نفس الوقت نظراته عليّ، وعيناه تشيان بأنه قد اختار الفراغ رفيقاً له.

قال: «أنت أكبر من عمرك». وأضاف متصنّعاً في كلامه: «هل ينبغي أن تكون شيطاناً لكي تحمل أحمالاً ثقيلة؟» كان غريباً ما قاله وقد لاحظ يوحنّا ذلك، فلم يملك رداً، وماذا كان بإمكانه أن يقول؟

نعم؟

أخذ يوحنّا صندوقه، وتوجّه إلى السيارة. فقد عرف سبب مجيئهما.

*

مفتاح الدفاع عن النفس موجود في الصندوق. قصاصات صغيرة متقشرة من ورق (A4) تالف، والتي تروي براءته.

ربّما لبس بذلته لأنه كان يعلم أن الحياة من الآن فصاعداً ستتحول إلى محكمة. فأينما توجه بعد ذلك، وأينما **تجولنا**، سواء لأسواق ايكيا، أو المكتبة العامة، أو رعاية الشباب، أصبح أي تصرف منا شيئاً يديننا في عيون الآخرين.

يمكن للمرء أن يدين الآخرين دائماً، وتعتمد النتيجة على أية جهة يختارها المرء، وثمة زوايا منحرفة موجودة دائماً لكي نمر عبرها. على الرغم من أنه لا يحق للمرء الشكوى لأنه يرتكب بنفسه ذات الأمر، إلا أنه يفكر مئة مرة يومياً حائراً في أن يدين شخصاً ما، أم لا.

لا يلاحظ المرء هذا. وأولئك الذين يدينهم، هم الذين يرون فقط أن ثمة أكثر من طريقة *دائماً* للنظر في أيّ شيء. لن يفهم الرجلان راكبا السيارة الفضية قصاصات يوحنّا. سيطلبان السماح لهما بمشاهدتها، سيقرآنها، لكنهما لن يفهماها. لا، إنهما عاجزان عن ذلك.

ها هو جالس، وهو ينظر إلى الخارج عبر نافذة السيارة. حزام الأمان مرتخٍ على خصره. أنحني إلى الأمام لأشدّه له. *إنه* طويل القامة، فآخر العلامات بقلم

الرصاص على الباب الداخلي لمخزن الطعام كانت 1،85 سنتيمتراً.

سبع عشرة فاصلة.

سبع عشرة حلقة عمرية.

آخر مرة، وقفتُ على طاولة، لقياس طوله. تباهى حين قلت إنه أطول من أبيه، إذ يبلغ طول ليئارت 1،84 سنتيمتراً. وأنا أقصر من كليهما، وقد تجاوزت قامةُ يوحنّا منذ فترة طويلة طول قامتي.

لم يرد أن أقيس وزنه في البداية، لكنه قبل أخيراً. إنه يزن 90 كيلوغراماً، لا تشكل العضلات قسماً كبيراً من وزنه، ونعرف من حركته أنه لا يحبّ الرياضة، كأن جسمه يسبق ذراعيه ورجليه. لا يدرك أن الخط المستقيم صوب الهدف ليس دائماً أفضل الخطوط.

وزنه يأتي غالباً من الأجزاء الناعمة من جسمه، والتي لم تتغير، وكأن جسمه يريد التأكيد على أنه لا يزال طفلاً، على الرغم من أن الأوراق الثبوتية تقول شيئاً آخر.

قَصّة شعر يوحنّا قصيرة. فمنذ سنوات يقص ليئارت شعره كل يوم أحد بماكنة الحلاقة الكهربائية، إذ لا يلائم الشعر القصير جدّاً يوحنّا، لأنه يزيل الطيبة من وجهه. كأن الرأس المحلوقة تجعل من المرء يبدو وكأنه شرير، فيصبح شريراً لأن الآخرين يرونه هكذا. لكنه لا يهتم بمظهره، ولم يفكر قط فيه، ولا فكر في الملبس، والفتيات، والآخرين.

كما أصبح مألوفاً عنده أن يدخل الحمام مع والده وعلى كتفه منديل مستمعاً إلى صوت ماكنة الحلاقة المزعج على وتيرة واحدة مملة.

يطلب من ليئّارت أن يقص له شعره كل يوم أحد، ويعرف ليئارت كم أكره ما يفعله، لكنه لا يستطيع أن يقول لا. يفعل ليئارت ما يستطيعه من أجل ابنه. ومن الملاحَظ، ولو ليس دائماً، أنه يحبّ يوحنّا إلى درجة العبادة، مثلما يحبه يوحنّا. ويعلم ليئّارت أن الروتين بالنسبة إلى يوحنّا أهمّ من النتيجة.

ولعلّه على حق.

لينَارت

يتدفق غدير بين «بوليدن» و«ستروفوس». غدير، لكن الحقيقة أنه خندق لعين. أو في الواقع ثمة غديران وخندق لعين تحت اسم *نهر* كلوكار «كلوكار بِكّن»، وكأنهم حاولوا أن يجعلوه يبدو أغرب مما هو عليه، لكن الناس فضحوا الخدعة حين عرفوا أن اسمه نهر كلوكّار. كان الغدير واسعاً لدرجة أنهم قاموا ببناء قنطرة فوقه. إنّ السويد بلد اشتراكي ديمقراطي نمطي. ويحتمل أنهم أنشأوا القنطرة هناك بالضبط لكي تكون كبيرة، ومكلفة أكثر ما يمكن من أموال الضرائب، وعلى الرغم من ذلك لم تتحقق رغبتهم، لأن القنطرة بقيت ضيقة.

عندما كنت أدرس في المرحلة العليا في المدرسة الأساسية أخذنا عينات من الماء أسفل القنطرة. لا أتذكر أي شيء من محاضرات درس الأحياء، لكنني أتذكر فقط، كيف كنا ننحدر من هذه الهوة الصخرية إلى الأسفل.

كنا في أواخر الخريف، وفي مثل هذا الوقت، كان الماء بارداً بحيث تخدرت أيدينا حين قمنا بالحفر بعلب بلاستيكية في قعر الغدير للإتيان بالطين الذي أخذناه إلى المدرسة *للتحليل*.

بحثنا عن الحيوانات الصغيرة والدود، وقسنا الحموضة في الماء بواسطة ورقة عباد الشمس. قال المدرّس هانس يوهانسون إن الحموضة في غدير كلوكار مثيرة للانتباه، تكاد تكون مثل الأوكسجين أو

الكوكاكولا. الأستاذ يوهانسون كان صغير الجسم، رجلاه معوجتان، وله شارب هتلري. وقد اختار لنفسه مهنة التدريس. هذا ما يقال عنه في أحسن الأحوال. قال إنه حامض مثل كوكاكولا لأننا نحن الفتيان سوف نشعر بالذنب، لأننا أحياناً، حين كان مصروفنا الشخصي يسمح، كنا نشتري المشروبات الغازية في أوقات الاستراحة.

لم نجد أية نباتات، أو حيوانات، بل وجدنا حشرة من متماثلات الأرجل، قتلها هانس بواسطة مادة الفورمالين قائلاً إنه من الغريب أن يتواجد مثلها هناك.

أتذكر كيف رفع العلبة الزجاجية بحيث استطعنا أن نرى الحشرة وهي ترفس. وبينما كنا نتابع حركتها، قال إن من الغريب جداً أن يستطيع مثل هذا الكائن العيش في هذه البيئة.

بلغت حموضة الماء حدّاً كان يتلف على مهل كلّ ما يسقط فيه، إلّا تلك الحشرة، قد نجت بأعجوبة. وقام بحكّ شاربه، مضيفاً قوله: «من المحتمل أن يكون منجم بوليدن وراء هذه الحموضة». ثم سكب الفورمالين، وشاهدنا الحشرة وهي تهمد. وضع فيما بعد العلبة على رفٍّ في قاعة علم الأحياء، إلى جانب سلّة فيها طحالب يابسة.

أعتقد أنه كان ينبغي أن ندع الحقيبة اليدوية تظل تحت الماء في الغدير لكي تنعدم وتختفي، فتصبح المسألة حينئذ وكأن يوحنّا لم يأخذها قط.

مونا

الصندوق في حضنه يحمله بيديه وكأنه يحمل شيئاً ثميناً وجديراً بالدفاع عنه. جدّه من طرف أمّه هو الذي أعطاه هذا الصندوق، بينما زملاؤه في المدرسة وضعوا فيه المحتويات حين انتقلوا إلى الصف السادس.

مضت خمس سنين على ذلك، لكنه لا يزال يحتفظ بالقصاصات.

كنت أعتني بأغلب زملاء يوحنّا عندما كانوا أصغر سناً، في أحد بيوت العطلة يسمّى «الوردة». لا أزال أتذكر أسماءهم وأصواتهم وأفكارهم، وكيف كانوا أطفالاً يافعين في سن الثالثة عشرة.

لكنهم تغيّروا إلى ما هم عليه الآن. كلهم لا يزالون أطفالاً في نظري، ويذهبون إلى «الوردة» كلّ عصر ليأكلوا سندويش الجبن، ويشربوا حساء الزعرور، ويتشاجروا من أجل لعبة الهوكي.

حكمتُ عليهم بهذا حين تركتُ وظيفتي بعد فترة من قصة القصاصات. أفعل نفس الشيء مع كل الأمكنة التي أتركها: أغلقها في علبة من الجليد، أجبر البشر هناك على الاستمرار في الدوران في آثارهم، أنفيهم إلى كون موازٍ لا يتأثر بمرور الزمن.

الأطفال باقون يشربون حساء الزعرور، مكتوب في القصاصات، ولا يمكنهم النمو وتحمل المسؤوليات.

أنا لا أستطيع أن أقرر مدى استساغتي لهذا الأمر.

أعرف فقط أنه لا ينبغي لي أن أفكر في هذا كثيراً.

*

أطلقت المعلمة ليندمان عليها اسم أوراق السعادة. عندما يكون يوحنّا حزيناً، يجلب صندوقه ويجلس ساعات يقرأ ويقلب الأوراق التي لم يعد يعرف من كتبها. ولا يعرف أحداً ممن أنا أعرفهم. لكنه يتذكر هذا كحدث إيجابي، فيشعر بالسعادة. كيف يمكنه أن يتذكر كلَّ هذا فرحاً؟ أين يضع الغضب الذي ينبغي أن يشعر به؟ أحياناً يكون عدم المقدرة على التفكير كما هو مألوف نعمة.

*

صنعت فيلماً عمّا حدث. قمتُ بتركيب كلَّ ما يمتُّ إلى روايته، كل ما أتذكره وكل ما حدث، وبهذا تم خلق سيناريو للأحداث. الفيلم موجود في داخلي فقط، لكني أستطيع عرضه متى شئت. أستيقظ أحياناً عند منتصف الليل، وأدعه يدور أمام عينيَّ المغمضتين.

أكثره منقول مما رواه زملاء يوحنّا حين جاؤوا إلى «الوردة» بعدما حدث هذا مباشرة. لم يفكروا في أن أكون أمَّ يوحنّا. وقفوا هناك يروون لزملائهم الأصغر منهم الحقيقة بدون تحريف، وبدون تعديل مثلما فعلت الآنسة ليندمان في وقت لاحق حينما اتصلتُ بها هاتفياً.

يقوم الناس بتعديل الحقيقة كي تتلاءم معهم بشكل أفضل، عندما يكون لديهم شيء يكسبونه أو يخسرونه، وهذا ما لم يكن موجوداً عند الأطفال.

من السهل أن تصنع فيلماً عن أحداث الحياة. والشيء الوحيد الذي يحتاجه المرء في هذا المجال هو أن يتذكر، وفي نفس الوقت كأنه يدع صوتاً راوياً ينطلق من الرأس. من يعرف كل شيء، يرى كل شيء ويحدد الأشياء المهمة. وبهذه الطريقة تكتسب حتى الأشياء الصغيرة التافهة المعنى الذي يكمن فيها حقاً. إن كان أحد ما غائباً، فيكفي أن تغمض الجفون وتدع العيون ترى ما تعرف، كي تستحضره.

وإن أردتَ فبإمكانك التفكير بخلفية موسيقية ملائمة أيضاً. فالموسيقى الصحيحة تحدد المزاج الصحيح. إن مادونا التي يُستمع إليها الآن من راديو السيارة الفضية، ليست مناسبة أبداً. نحن نحتاج إلى شيء آخر لأوراق السعادة. شيء يتكلم دون حروف.

ربما تشيلو منفرداً، مع بيانو يُعزف بإبداع إن كان بالإمكان؟ بالأحرى موسيقى حزينة لكي يعرف المرء أنه سيحزن. وهكذا يبدأ الفيلم، وكذلك نغمات متناسقة تجعل المشاهد يشعر أن ثمة نهاية سعيدة. إن الفيلم يتميز بهذه المميزات. بعد مشاهد مطولة لأوراق السعادة يأتي شيءٌ آخر يحمل الفرح، وهكذا.

أو شيء آخر يختلف عن التشيلو. نسخة (جف بيركلي) عن «هاليلويا» التي أحبّها؟ أو نسخة (كنت) «عندما تهبّ الريح على القمر»، والتي يحبّها يوحنّا؟ للأغنيتين نغمات ذات مغزى ومعانٍ. وهذه هي وظيفة الموسيقى.

*

أشاهد فيلمي. إنه يجلس في قاعة الدراسة مرتفعة السقف. الجانب الطويل مغطى بنوافذ كبيرة والستارات الفينيسية مسدلة، وبدلاً من ضوء الشمس يتدفق لمعان بارد من أنبوب النيون. الحروف الكبيرة المكتوبة باللون الأحمر معلقة فوق السبّورة. وعلى إحدى الدكات تنتظر صينية بأكواب فلورية.

بقي الكوب الأخير لي من المرحلة المتوسطة لدراستي الأساسية، وهذا ليس بشيء مهم، فالذاكرة لا تكون كاملة على الإطلاق.

التلاميذ جالسون على المقاعد المدرسية الخضراء، كل اثنين على مقعد، يكتبون ببهجة. لكل مقعد صورة زاهية، مكتوب على واجهتها اسم التلميذ.

يوحنا جالس مع فتاة. وما ألاحظه أنها غير راغبة في ذلك، لأنها طوال الوقت تشيح بنفسها عنه وتتكلم مع الزميل في الجانب الآخر من الممر.

يوحنا أكبر قليلاً من الأطفال الآخرين، هذا ما أفكر فيه في كل مرة زرت الصف. أو بالأحرى ما يزعجني أنه لم يكن يتناسب جسدياً مع زملائه. وأما الفوارق الأخرى فيمكن إخفاؤها بطرق مختلفة، لكن الانحرافات الظاهرة لا يمكن إخفاؤها، إذ تكون موجودة حتى ولو كان صاحبها جالساً في هدوء وسكينة.

اسم المعلّمة ماريا ليندمان، تسكن في سترومفورس. يمكن تقدير عمرها بحوالي خمسين عاماً. لكنها تحظى

بوجه طفولي يجعلها تبدو في الثلاثين. ويحتمل أن يكون هذا سبب أنها تلبس كشخص مسن يثير الحيرة، بذلات نسائية وأوشحة. نفهم من كل ذلك أنها ***تحاول*** أن تتهندم بشكل جيد، لكن محاولتها لا تنجح مثلما تشتهي. فالملابس ينبغي أن تكون مناسبة.

تتجول في الصف وتراقب عمل التلاميذ ببسمة سعيدة. ابتسامتها تبطن رضا عن النفس. وأنها ترى أن ما تفعله هو أمر جيد. وتقف بجانب إحدى الفتيات وتنظر فوق كتفها إلى ما تكتب.

وتصيح: جيّد!

وتنتقل إلى أخرى في الخلف.

«لكن يا لينيا، أهذا صحيح؟ تستطيعين العزف على القيثارة؟»

تطلب الفتاة منها السكوت، وتضع المعلمة ليندمان يدها على فمها.

«بالضبط، لا يجوز أن نتحدث عمّا تكتبون قبل الأوان، إذّاكَ سندمر عامل الإثارة. إن ما يكتب على ورق السعادة يجب أن يكون مفاجأة!»

لكنها تظل واقفة فوق كتف الفتاة. وتنعطف بعد ذلك نحو أحد الأولاد.

«أنت يا دافيد، لن أقول شيئاً، سوى أنني أعتقد أنك ستسعد بهذه الورقة!»

يأخذ وجها الفتاة ودافيد بالاحمرار، ويبدأ الآخرون

بالدمدمة، إلا أن المعلمة تستوعب الأمر، أو أنها تجده مناسبة لتعليمهم دروساً ناضجة.

تقول: «الفكرة تكمن في أوراق السعادة هذه في أن تشجعوا بعضكم بعضاً بدون أذى».

في مرة أخرى، تقول: «ألا تعتقدون أن دافيد سيفرح إذا ما سمع أن له عينين جميلتين؟ فالمسألة هي أن تكتشفوا أشياء تجعلكم تحبّون بعضكم بعضاً».

تمكث لحظة وتدع ما قالته يُستوعب من طرفهم، قبل أن تمضي قدماً.

في فواصل متساوية تتوقف عند مختلف الأطفال وتشجعهم بتعليقاتها وملاحظاتها.

وتنتقل الآن إلى يوحنّا.

- «حسناً، يوحنّا، لقد كتبت عدداً كبيراً من الأوراق مثل الآخرين».

لا ينتبه يوحنّا لهذه التعليقات مثلما يفعل الآخرون.

تنحني عليه، قائلة: «ماذا كتبتَ؟»

يريها يوحنّا الوريقات.

- «هل كتبت فقط أن الجميع جيدون في لعب كرة القدم؟»

* «لا، ليس الفتيات».

تعدّل المعلّمة ليندمان ظهرها، ويتغير صوتها فجأة. كأن الحرارة انتهت، أنا أعرف كيف تتكلم إلى يوحنّا. يبدو عليها الهدوء، وبأسلوب تربوي تقول: «على المرء

أن ينوّع»، مضيفة: «من المستحسن أن يبذل المرء جهداً حين يريد التهجئة».

لا يقول يوحنّا شيئاً. تنظر المعلمة ليندمان إلى الورقة مرة أخرى.

مكتوب عليها: ***«مورتن جيد في الفوتبول».***

«كم حرف (ل) موجود في ***الفوتبول***، يوحنّا؟»

يعيد يوحنّا النظر في نفسه، ويضحك الآخرون بشكل مكبوت. يحدق في الورقة مرة أخرى. ويضيف حرف لام آخر.

فوتبول.

«حسناً، يوحنّا. و كم حرف (ت)؟»

يتردد يوحنّا.

- «حاول يا يوحنّا. أعرف أنك تعرف هذا. فإنه بسيط جداً!».

هذه الكلمة التي قالتها لا يجوز قولها لأي شخص متوتر ومتعَب.

كأن الفيلم توقف هنا. كأن اللفّة أخذت تنفرم، ويأخذ الواقع بالانقسام.

أحاول رؤية وجهه، بلا جدوى. لم أكن هناك، لكن كلّ شيء كان واضحاً. أمعن في التفكير في ذاكرة ليست لي. إنها ليوحنّا. هي ليست لي مهما أثّرت فيّ.

وثمة طريقتان لدى يوحنّا للسيطرة على الشعور بالإجهاد، ولم ألمح أية إشارة تبين لي أية طريقة يختار.

يبدي أحياناً عدم موافقته على النقد الذي يوجه إليه. وأحياناً يقوم بتجاهل الأمور البسيطة. أكاد أعتقد أنه اختار الطريقة الثانية. ويبدو ذلك في نظرته التي تعبر عن احتجاج صامت.

يقوم باضافة حرف (ت) *ثالث*.

كرة القدم.

تصيح المعلمة ليندمان بصوت يسمعه الجميع: «لكن، يا يوحنّا، أراك الآن تحاول التخمين فقط!» وتضيف: «بالطبع، تتذكر عادةً ماذا نقول؟ لا يجوز وضع ***ثلاثة*** حروف متشابهة مع بعضها بعضاً في كلمة واحدة».

يومئ يوحنّا برأسه وينظر إلى الأسفل.

تطلق المعلمة ليندمان تنهدة وتعدل وقفتها.

تقول، حسناً وتمضي.

لمَ هذا الغموض.

تلتفت بعد ذلك إلى جميع الفصل: «أوه، داهَمَنا الوقت! هل ستنتهون بعد قليل لكي نستطيع توزيع الأوراق في الاستراحة؟

بقي شيء تريدون كتابته؟»

فتقول فتاة بتباهٍ: «لقد كتبتُ للجميع ما عدا يوحنّا».

ويرد آخر: «أنا كذلك، لا أستطيع تذكر شيء جيد أكتبه عن يوحنّا. لقد حاولتُ كثيراً».

تسود دوامة! تداخلت أصوات الأطفال كأنهم يقولون

جميعاً إنَهم لم يستطيعوا الإتيان بشيء يكتبونه عن يوحنًا. في الفيلم يجري هذا في رأسي، أمًا في الواقع؟

هل كان اثنان فقط من زملاء الفصل قالا شيئاً بصوت عالٍ؟ كم كان العدد؟ كم صوتاً كان ضرورياً لتوصيل الرسالة؟

أراه جالساً هناك في الفصل، منكساً رأسه لكنه لا ينظر إلى الأوراق التي كتبها. يجلس وقتا طويلاً، ويثرثر حوله الأطفال الآخرون. يتحركون، يتكلمون مع بعضهم بعضاً، يشتمون ويصرخون، إلا أن يوحنًا، الذي ينأى بنفسه، يجلس بهدوء على مقعده ولا يبدي أية حركة.

وفجأة ينهض ويركض خارجاً من حجرة الفصل.

يركض بدون سترة وحذاء. يراه الآخرون مائلاً على حديقة المدرسة الممطرة.

مونا

أعتقد، إن كانت للأشياء معانٍ، يتذكر المرء كثيراً منها دون أن يمكنه حسم معانيها، فالأمور كلها مرتبطة ببعضها بعضاً. إنني لأتصور أن ثمة تناغماً يجري بين الأشياء، فهي تعني شيئاً يقوم المرء بسحبه كالخيط بعناية، خيط يتبعه المرء، ويأتي يوم يدرك فيه أن في يده خيوطاً ليرى ويقارن. فجأةً تأخذ الأشياء بالانتظام، فيمكنه السير على منوالها.

هكذا يتضح ما كان خاطئاً، وأين يخرج الخيط عن سكّته، وسيعرف الإنسان ماذا يفعل كي يكون كل شيء على ما يرام.

هكذا أفكر أنا.

إن ما يخيفني هو الفكرة التالية التي تأتيني، حيث يتضح لك ما كان ينبغي عمله بشكل مختلف.

لكن حينذاك، في مركز البصيرة، لا يوجد ثمة ما يستطيع المرء عمله.

الفصل الثاني

داخل البلدة

مونا

نعيش في سترومفورس خارج بوليدن.

أو أصلاً خارج سترومفورس، لأن بيتنا يقع تقريباً على الأطراف. كما لا يمكن أن نقول إننا نعيش في قرية.

ولا حتى في قرية في مركز شمال فيستربوتن.

انتهى بي المطاف هناك.

أتساءل ما الذي قلته في شبابي عن شخص تحدّث أنني كنت سأغادر مالمو لكي أقضي إجازة مرضية في غابة الصنوبر؟

يُستخدم بيتي الجديد أحياناً كشتيمة في وسائل الإعلام، إن استمع المرء بشكل دقيق: ***«شمال مركز فيستربوتن»***، مكان حيث لا يحدث أي شيء لعائلات عاطلة عن العمل تستخدم زلاجات سكوتر، على الرغم من أننا مثلهم بالضبط. نشترك في نورّان «الشمال»، جريدة الشمال المحلية التي يقرأها سكان افابيك في كتب تورجني ليندغرين. وفي الشتاء يركب يوحنا برفقة ليئارت الزلاجة الكهربائية التي كلفتنا أضعاف تكاليف سيارتنا، ذهاباً وإياباً في الحقول.

لا أدري ما الذي يجذبني إلى هذه المنطقة. أعرف أن ثمة شيئاً آخر موجوداً هنا. شيئاً غير مستحب حين يستخدم المرء كلمات للتعبير عنه، لكن حين يعايشه لا يستطيع تركه.

في الشتاء حين أخرج صباحاً لأجلب (نوزان)، أرى الثلج والصنوبر فقط. نصادف في الصيف حمولات البطاطس والمروج بدل الثلوج، لكن كل شيء متشابه.. بِكر. وهنا تكمن الروعة. لا روح تنفذ في الأفكار. البصمة الإنسانية الوحيدة التي أراها هي آثار دواليب سيارة البريد. إنها تنعطف إلى الوراء عندنا، لأنه لا أحد يسكن على هذه الطريق بعد بيتنا.

في ساعات الصباح أرى أحياناً سناجب على الجانب الآخر من الطريق، تتوارى عن الأنظار في بقية الأوقات، لكنها تظهر في الصباح فقط. تطارد بعضها متسلقةً على فروع الصنوبر صعوداً ونزولاً وكأنها ترقص رقصة معقدة. أفتح الباب بحذر لئلا تسمعني فتنقطع عن الرقص.

أقف مطولاً وأنظر إليها، فقط أنظر إليها. اثنان ساحران تماماً. أقف مرتدية الروب، أشعر بمسرّة وأعيش الطبيعة بنشوة. وماذا يريد الإنسان أكثر من هذا؟ أفكر وأنا مفعمة بشعور أن ما أفعله هو الصحيح.

ولكن فجأة وبدون أي تغير ظاهري، أرى كلّ شيء حولي بألوان أخرى. تكتسب الأشياء حولي ظلالاً، لكلّ منها وقت محدّد.

أرى مكان السناجب الحقيقي في كوننا اللانهائي. أراه عديم المعنى. سنجابان يصعدان على جذع شجرة وينزلان عنه بعد ستة مليارات من السنين لوجود الأرض. أيام السناجب تلك على جذع الشجرة تافهة

جداً. أيام تَخْفُت، تختفي. أيام نكاد نراها تختفي بينما ننظر إليها.

لو قمتُ بتصغير المشهد الذي أنا فيه درجة واحدة من خارج الصورة، لأصبح كحبّة رمل على ساحل لا نهاية له. سنوات تافهة من المشاكل، ستكون قريباً طيّ النسيان، سيتم نسيانها كأنها لم تكن قط.

رغم هذا فالأمر ليس بهذه البساطة.

فوسط القلق والفوضى يغدو كلّ شيء غالياً بشكل لا يطاق. وغالباً ما أجد نفسي هاربة إلى داخلي. أجلس عند منضدة المطبخ وأتصفح (نورَان) بدون أن أقرأ كلمة واحدة.

*

يظن ليئارت أنني أريد أن أنتقل من هنا. هذا ما يستنتجه من تركيبه للمشاهد التي تجري أمام عينيه. صحتي ليست على ما يرام هنا، هذا ما اقترحته مرة. ماذا يريد أن يعرف أكثر؟ لكنني تقدّمتُ بهذا لأجل يوحنّا. كخيار حين بدأ كل شيء يخرج عن مساره. كخيار فقط.

لكن بعد كلّ هذا، يفهم ليئارت. يتأمّل. هو يقول:

نعم، كيف لي أن أختار البقاء؟

ليئّارت نفسه لا يحبّ العيش هنا. إنه لا يعترف بذلك، لكنني أحس به. السبب في أنه يريد البقاء هو أنّ لا بديل آخر لديه. عاش طوال حياته هنا، و لا يجرؤ

على التفكير، ***احتمالا***، في أن ثمة خيطاً آخر يمكن اتباعه.

«للمرء ما يملكه، و لا يجوز تغييره». هكذا يفكر. وهو يكره هذا.

يقول إن علينا أن نبقى هنا من أجل يوحنّا. ربّما يفكر هكذا أيضاً. على الرغم من كل ما حدث هنا.

أتصور مرات أخرى أنه لا يريد الانتقال لأنه يخاف أن يخسرني. إنه من النوع الذي يعرف كيف هي الأشياء، ولا مناص من أن أكون أنا الخطوة القادمة. في حال انتقلنا يمكن أن يحدث العكس، فتنفتح عيوني وأراه كما هو عليه حقاً. لكن الإنسان يكبر بمرور الوقت. هكذا، إذاً. فما يتعرض له الناس، أحياناً على أيدي بعضهم بعضاً، إنّما يوحّدهم. وبمرور الوقت يأخذ الناس في الحاجة إلى بعضهم البعض، وحينها لن يكون ثمة شيء يمكن فعله. لم يكن يفهم هذا قط.

لم تمضِ بضعة أسابيع حتى أصبحتُ في حاجة إليه، حاجة الإحساس بدفء جسده قرب جسدي كي أقدر على النوم. لا صلة للمسألة بالرغبة الجسدية، إنها شيء آخر. بضعة ليالٍ كان فيها خارج البيت، استلقيت في السرير، وتلويت وشعرت بأن ثمة شيئاً مفقوداً.

إنه يشعر بالشيء نفسه. غالباً ما يشير إلى فروق بيننا، وإلى أننا غير مناسبين لبعضنا البعض، لكنه يعلم أن نصف ما يظنه، فحسب، هو الصحيح.

الفصل الثالث

أوراق السعادة II

مونا

مرة بعد أخرى، أعود إلى أوراق السعادة. أهجع في الليالي وأفكر أنه هناك، بالتحديد، هناك، بدأ كل هذا. هناك يخرج الخيط عن مساره بحيث لا يمكن إعادة النظام إلى ما كان عليه من قبل.

ثمة أحداث تتحول إلى أحداث مركزية تتحكم فينا. نحن من يجعلها مركزية. ومن المحتمل أن يكون تأثيرنا فيما يحدث حقاً ضئيلاً جداً. وعلى الأغلب تكمن الأهمية في الرموز التي تمثل الأحداث. أراه قادماً يمشي في الطريق. إنها تمطر. و قد صار الإسفلت قاتماً يلمع إثر المطر. تجاوز لتوه القنطرة على غدير كلوكار بمسافة طويلة. يمشي بجوارب فقط. يبدو أنه يشعر بالبرد الشديد.

تتقدم سيارة فولفو أمازون قديمة وتتوقف على حافة الخندق أمامه. إنه يتوقف أيضاً، محاولاً أن يرى خلال مرايا النوافذ. ويفتح بعدئذ الباب بدون أن ينبس بكلمة، ويصعد إلى الجانب المخصص للركاب. الجوارب الوسخة انزلقت الى النصف. وسخت الأرضية حين وضعها على السجادة المطاطية، وقد سال المخاط من أنفه.

أنا التي أجلس في السيارة. أومئ برأسي بصمت نحوه، لكنني لا أجرؤ على قول شيء، ولا أستطيع الذهاب. أريد أن أقول شيئاً، أن أجد كلمات تجعل كل شيء على ما يرام، كلماتٍ تضع الأشياء في محلها

الصحيح. لكن ماذا يقول المرء؟

لا تبدر مني حتى كلمة سلام، إذ أصرف الطاقات كلها لأمسك ذاتي عن البكاء.

«لم يكتب الآخرون عنّي، في قصاصاتهم، يا أمّي». هذا ما يقوله.

لقد تحدث الأطفال في «الوردة» عمّا جرى. رووا نفس الشيء لكن بشكل مختلف. سردوا رواية أخرى. حتى المعلمة ليندمان سردت روايتها. لكن يوحنّا جمعها كلها في جملة واحدة، تعني الشيء الكثير.

الآخرون لم يكتبوا أية أوراق عنه. نقطة.

والبقية مجرد كلمات وتبريرات.

ما عاد بإمكاني منع دموعي. لم ألبث أن جففتها، وكأن الدموع شيء يدعو إلى الخجل في هذه الحالة.

أحاول تسليته: «زملاؤك في الفصل يحبونك، لم يقصدوا الإساءة إليك. كانوا عاجزين فحسب عن الاختيار لأنك استثنائي. فريد، أتتذكر جيداً؟».

يوحنّا جالس بهدوء وينظر إلى الأمام، ولا يزال المخاط يتدلى من أنفه.

* «لم يكتبوا أنني شجاع، يا أمّي. لم يكتبوا أي شيء من هذا القبيل. لم يكتبوا أي شيء».

أعضّ على شفتي.

- «يحتمل أنهم لا يعلمون أنك شجاع؟»

* «يعلمون».

والآن ينظر إليّ أولاً، باحثاً عن الكلمات دون أن يجدها.

أقول: «ربما نسوا. من الطبيعي أن ينسى المرء الأشياء أحياناً».

يمكن أن تكون الكلمات فارغة جداً. يمكنها أن تغدو مهمة جداً بحيث تتحول إلى أكاذيب. هكذا. هذا ما توضح لي في السيارة. ومع كل هذا يحاول يوحنّا أن يصدق هذه الكلمات، أن يبث فيها الإحساس. يجلس ساكتاً للحظات. كلّ ما يريده هو أن يُمحى كلَ هذا من ذاكرة الآخرين».

يقول: «أريد، على كل حال، بعض الأوراق».

- «أعرف، يا حبيبي... ربما أستطيع أن أكتبَ لك بعض الأوراق؟».

وأنا أحاولُ، أحاولُ بثّ الحياة في تلك الكلمات الفارغة. إلا أنه يهزّ رأسه.

* «لن يكون الأمر مماثلاً».

- «أعرف».

نجلس صامتين مرة أخرى.

* «هل أنت غاضبة منّي، يا أمّي؟»

- «ولماذا أغضب منك، يا عزيزي يوحنّا؟»

لا يجيب. ويهيمن عليّ قلق واضطراب. كيف سيفسر غريزياً كلَ ما يشعر ويحس به؟

تنتابني رغبة شديدة في أن أعانقه مطولاً، بقوة،

بحيث تنقطع أنفاسه. لكنني أمتنع. أخرج منديلاً وأمسح به المخاط الذي كان يسيل من أنفه. بعد ذلك أقوم بتشغيل المحرك وأبدأ السير في الطريق.

- «ليس هذا خطأك، يوحنّا. ليس عليك أن تشعر بأن هذا خطؤك ولا حتى للحظة واحدة».

- «عفواً. لكنني شعرت بهذا مرّات عديدة».

لا أستطيع منع ابتسامتي.

وأقول: «أين المفرّ، إذاً، معك؟»

الفصل الرابع

أوراق السعادة III

يوحنّا جالس في غرفته وينظر إلى الخارج خلال النافذة. ينظر إلى العشب، إلى المدخل المحطّم حيث سيارة الأمازون تتوقف، إلى مزرعة البطاطس، وحقول القمح. و إلى الغابة التي تقع إلى الجانب الآخر من الطريق.

يأتي والد يوحنّا راكباً الدراجة الهوائية وينعطف، مارّاً أمام سيارة الأمازون المركونة.

يعمل ليئارت ميكانيكيَّ سيارات في أحد المعامل في بوليدن. إنه يصلح السيارات طوال النهار. على الرغم من أن هذا العمل هو أسوأ ما يجيده، إلا أنه أصبح مهنته. وعندما تساءل يوحنّا لماذا يذهب إلى العمل رغماً عنه، قال ليئارت إن يوحنّا على حق. وكان ينبغي أن يقول لهذا الميكانيكي البائس: «أصلح السيارات لنفسك، فأكثر ما تكسبه من تعبك يذهب إلى الضرائب التي ينفقها السياسيون في النوادي الليلية».

مع ذلك لا يزال يذهب إلى عمله. إنه إنسان بالغ ويعرف أن الحياة يجب أن تكون هكذا.

ليئارت يذهب إلى المعمل راكباً الدراجة الهوائية، لأنّ إمكانياتنا المالية لا تسمح بامتلاكنا لأكثر من سيارة، وهو يريد أن تكون السيارة معي في حال حدث لي أو ليوحنّا شيء. وسيارتنا في أغلب الأوقات معطلة لأنه يكون متعباً حين يعود إلى البيت ولا يستطيع إصلاحها بعد عمله على سيارات الآخرين طوال النهار.

إنه ذكي جداً. هذا ما يقوله الجميع عنه. مع ذلك يركب الدراجة أو يقود سيارة قديمة مخلخلة على الدوام تقريباً. «إنها لمسخرة»، يقول يوحنّا. لقد فهم هذه الكلمة.

*

عندما يصل ليئارت إلى البيت، يذهب يوحنّا على مهل إلى الدرج، ويصيخ السمع لما نقول في الطابق السفلي. أصبحت على قناعة أكثر بأنه يفعل هذا.

ألتقي زوجي في الردهة.

أول ما يقوله ليئارت: أين هو؟ هل جاء إلى البيت؟

أقول: «يستريح في غرفته».

- «كيف حاله؟ على ما يرام؟»

* «أخذ حمّاماً لقدميه، وتناول سندويشة قبل أن يذهب إلى النوم. لقد كان متعباً جداً. انظر كيف انتشرت البثور على قدميه. لن يستطيع المشي غداً».

أرى كيف تُظلم عيون ليئارت حين يترك أخيراً مخاوفه لتحل محلها مشاعر أخرى.

- «أهذا ما دعاه أيضاً للخروج بدون حذاء؟ هل ظني صحيح؟».

لا أقول شيئاً، بل أومئ إليه كي يخفض صوته مشيرة إلى غرفة يوحنّا في الطابق العلوي.

يهدأ ليئارت قليلاً، ويهمس: «لكنه على ما يرام، ماذا تقولين؟ وفي صحة جيدة أيضاً؟» أجيب على رنّة

مكالمة تلفونية لكي أبين أن كل شيء سوف يغدو عادياً ما أمكن.

- «سوف يكون على ما يرام، ليس عليه إلا الراحة، وأن يتكلم معك لبعض الوقت قبل النوم. بالمناسبة، ماذا يعمل الآخرون في «الوردة» الآن؟»

* «قالت مايبريت إنهم يدبّرون أمورهم بأنفسهم، لهذا رحلت. وأنت؟»

- «أخذت إجازة من العمل».

إنه يسخر.

يهمس: «يا للعنة، هذا غير صحيح». ويضيف: «والآن علينا دفع تكاليف التمرين لأن المدرسة لا تقوم بواجباتها. كأن هذا ما تمّ تقريره».

لا أقول شيئاً، وهو يواصل الكلام.

- «هذا بالتأكيد ما تتجه إليه السويد. نتوقع أن لا يكون أمامنا سوى الصمت، ونكون لهم شاكرين لحصوله على فصل دراسي مع فيكتوريا وأسلوب الإضبارات اللعين».

* «كانت فكتوريا جيدة».

- «طبعاً كانت جيدة. لكن لماذا لم ترجع حتى الآن؟»

نعم، لماذا؟ لا أعرف لماذا. وعلى الرغم من ذلك أقوم بالدفاع عمّا لا أفهمه.

يقول: «هذا ليس بشيء سهل». مضيفاً: «ليس يوحنّا بهذه البساطة، وليست لدينا خيارات عديدة».

«أجل، هذه هي المسألة».

يبدو على ليئّارت استسلام ممزوج بتهكم مرّ. أندم على ما قلته، لكن بعد فوات الأوان.

يقول حينذاك: «ومن المستحسن أن ننتقل، حينها سيكون كل شيء بالتأكيد على ما يرام. إلى مدينة كبيرة لعينة، مثلما تريدون. وبالتأكيد توجد غرفة كونكريتية شاغرة يمكن أن نحشر أنفسنا فيها. ويمكن ليوحنّا أن يعايش الطبيعة في كتاب مصوَّر».

- «لم أقصد هذا».

نأخذ قسطاً من الراحة لئلا نفقد أعصابنا. ونركز على نقطة صحيحة. لقد كنا هنا بالضبط من قبل. ولا يمكننا المضي انطلاقاً من هنا.

يقول: «هلا ذهبتِ لتري إن كان لا يزال يقظاً لتكلّميه؟ هو يستمع إليك، أقنعيه، ليس من المهم أنه لم يحصل على أوراق، فهو جيد على أية حال».

لا يسمع ليئّارت.

يقول: «هذه المعلمة اللعينة ليندمان، هي من سمت تلك القصاصات أوراق السعادة؟»

أومئ رأسي، وهو يتهكم مرة أخرى.

«أريد أحياناً أن أخنقها بيدي حين تتبختر في حديقة بيتها، متصورة نفسها شيئاً مهماً. معلمة المرحلة المتوسطة تعطي نفسها هذه الأهمية؟»

«سوف نتعلم اليوم كيفية التحرش بمن لا يشبه الآخرين».

«ومن تأتيه فكرة زراعة أشجار الخوخ هنا؟ فلا تنمو الفواكه كلما اتجهت شمالاً. ولو فكر الله في زراعة الخوخ في هذه الأرض، لنما عليه الصوف بدلاً من القشرة. يزرع الناس هنا البطاطس أو الجزر، فحسب».

- أتصور أن أشجار الخوخ جميلة.

- وعلى لارس اللعين أن يقف ويغسل سيارتهم افينيس كل سبت لعين؟ إن طلاءها معدني، ولا ينبغي غسل الطلاء المعدني كثيراً. وأنا أدافع عنها، بقولي: «وحتى لو أردت عدم التصديق، فإنها تقف إلى جانبنا، إنها تحاول».

* «نعم، ألاحظ ذلك. لاحظي ماذا يجري في غياب المعلم المساعد. ومن ثم أرسلي هذا الفتى الجاهل إلى البيت حين يكون الأمر متعباً معه قليلاً».

- «لا تسمِّه «جاهلاً» أبداً مرة ثانية!»

يندهش ليئّارت ويندم.

* «لا، لم أقصد ذلك. إنه يرى أشياءً لا نلاحظها نحن أبداً. إنه أذكى منّا إلى حدّ اللعنة. على طريقته الخاصة».

- «لا تقنعني، بل أقنعه».

أنا قاسية، رغم أنني أعرف الخطأ في التوجيه. لكنني لا أتمالك نفسي. من سيكون أمامك لتتعارك معه حين تقاتل تنّيناً غير مرئي لا يُقهر؟

حينذاك تكون في مواجهة رفيقك. ولو أن ليئّارت قد

وجد هدفاً آخر.

قال مرة أخرى: «هذه المعلمة اللعينة ليندمان. أقول لكِ، في المرة القادمة حين ألتقيها سوف ألقنها درساً في..».

يرنّ جرس الباب.

تشبه الحياة أحياناً مسرحية هزلية، لأن المعلمة ليندمان كانت واقفة عند الباب حين فتحته لها. ومثلما في المسرحية الهزلية يسكت ليئارت ويحاول الترحيب بابتسامة. لكن في الحياة الواقعية ليست الأمور طريفة هكذا.

تحمل المعلمة مصنفاً مصنوعاً من البلاستيك، تحضنه بيديها.

تقول: «مرحباً. عذراً على الإزعاج».

أجبتها: «لا، أبداً، ليس ثمة ما يزعج، ادخلي».

يجب الترحيب بالآخرين بغض النظر عما إذا كنتَ صادقاً في ذلك أم لا.

يبدو على المعلمة ليندمان الارتباك. وتقول: «لا بدّ من أنكم تعلمون لماذا أنا هنا، إنه أسوأ ما هو موجود في مهنتي. أين يوحنّا؟ هل عاد إلى البيت؟ خطأ كبير حصل في المدرسة».

- «يوحنّا يستريح في غرفته».

* «كيف حاله؟ منزعج بشدّة؟»

- «كلا. ليست هناك مشكلة. قام بإعداد مغطس

لقدميه لأنه مشى في الطريق حافي القدمين. لذا ظهرت بثور تحت قدميه لأنه سار طويلاً قبل أن ألحق به، ستزول بسرعة. لكن شعوره بأنه غير محبوب، هو أكثر ما يؤلمه، حسب ما أعتقد».

- «إذاً، لا خطر عليه؟»

تسمع ما تريده أن تسمعه.

أتنهدَ.

- «حزين شيئاً ما. لكن المرء يفهم ذلك. لا أحد يريد الشعور بأنه لا يساوي شيئاً».

- «آسفة جداً، يا مونا. لم أفكر قط في..».

يقاطعها ليئارت: «هل دبّرتِ معلماً مساعداً ليوحنّا؟»

يسأل بنبرة هادئة، لكنها ترد بصوت منخفض.

«ليس سهلاً. كما تعلم، لا ينمو المعلم الخصوصي على الشجر».

يفتح ليئارت فاه، ربما لكي يقول: «مثل الخوخ الذي لا ينمو في فيستربوتن». لكنني أحذّره بنظرة قاسية.

فيقول: «بلى، ألاحظ ذلك، لكن كان بالإمكان تدبير طالب متدرب؟ وإن أيّ معلم بديل ذي بثور، خير من لا شيء أبداً».

- «هذا غير عملي. وأنت تعلم ذلك. إن يوحنّا يحتاج إلى معلم خصوصي متدرّب. على الرغم من أن كل شيء مرتبط بالأموال. ونحن ندرس البدائل الموجودة».

- «تعملون وفق أسلوب الأفضلية اللعين!»

- «للأسف يوجد في الفصل ثمانية عشر تلميذاً آخر أيضاً. لا نستطيع أن نخصص كل الموارد ليوحنّا».

- «لكن على الأقل بعضها..».

أنا من يقول الكلام الأخير. لا يسعني ذلك.

تسكت المعلمة ليندمان لحظة، وهي تتنفس الصعداء.

تقول: «نفعل ما بوسعنا لكننا لا نستطيع أن ندفع بالآخرين إلى الوراء لأن واحداً يصعب عليه.. التكيّف».

تلتفت إليّ وتنظر إلى عيوني نظرة ملؤها الرأفة. وبعد ذلك يبدو كل شيء وكأنها تجردت من الشعور.

تقول: «لا أريد أن أزعجكم أكثر. فأنتم تريدون تدبير هذه المساعدة بهدوء وراحة. وقد فكرتُ في إمكانية توفيرها ليوحنّا».

تسلّم المجلّد البلاستيكي الذي فيه عدد من الوريقات البيضاء الصغيرة.

«الأطفال الآخرون بقوا أثناء الاستراحة وكل واحد منهم كتب وريقة سعادة ليوحنّا».

تلتفت إلى يوحنّا إلى أقصى حد.

«أريد أن تعرفوا إن هذا لم يكن ما احتججتم عليه مثل البقاء في الفصل أثناء الاستراحة والكتابة، وإنه مضى بسرعة شديدة. ولم يكن صعباً على أيّ واحد منهم إيجاد شيء جيد عن يوحنّا حين قاموا بالمحاولة. فبالتأكيد إنهم يحبّونه».

تستدير ثانية.

تقول: «أطلب مرة أخرى المعذرة عما حصل. وفكرة التمرّن كانت تماماً بالعكس..»

يقول ليئارت: بلغي سلامي لـ (لارس).

يوصد الباب. ننظر إلى بعضنا البعض.

عندما أعيد التفكير في هذا، يبدو لي كأنني أرى البقية من فوق.

نصعد إلى غرفة يوحنا. يتسلل إلى السرير عندما نصل إليه.

نجلس على حافة السرير ونترك له وريقات السعادة. يفتحها يوحنا وأقوم بمعانقته حين أراه يفرح. لا يعانقه ليئارت، فالرجال لا يعانقون. بدلاً من ذلك يقوم بتسريب يده بحنان في شعر ابنه المقصوص.

وتتجمد بسمتي حين يأخذ يوحنا بإظهار الوريقات. أحاول عدم الافصاح عما أفكر، لا أريد تحطيم الموقف لأجل يوحنا وليئارت. وأرى ليئارت يفهم الموقف بدوره أيضاً.

يوحنّا

لم تكن أمّي في البداية تحب وريقات السعادة على ما يبدو، ولكن عندما سألتها قالت إن الوريقات كانت جميلة جداً وعليّ أن أحتفظ بها. فوضعتها في الصندوق الذي حصلت عليه من جدّي وقالت أمّي إنه مكان جيد. و كان لأبي أيضاً نفس الرأي.

«يفهم يوحنّا كل شيء مباشرة دائماً».

«يوحنّا يجيد التهجي».

«يوحنّا يجيد لعبة كرة القدم».

«يوحنّا يحسن آداب المائدة».

«يوحنّا له عينان جميلتان».

مونا

حين تسير السيارة الفضية فوق قنطرة كلوكار، يقوم الولد طوال الوقت بالنظر عبر النافذة. ولا يبدي أية علامة تدل على أنه يشعر بشيء استثنائي حين نمر بالمكان.

ومن جانب آخر، ما الداعي لكي يشعر بشيء استثنائي؟

لا فرق لديه في أن يذهب الى البيت كالعادة أو أن يقف ويرمي الحقيبة. لا يفهم ماذا يفعل، وهذا ما يميزه عنا نحن الآخرين. ستكون لحالته في نهاية المطاف عواقب صغيرة. لكن يحتمل أن يشكّل هذا فارقاً ما. إنه فارق يكاد يكون غير محسوس.

حين يريد تمييز الخطأ من الصواب، والأسود من الأبيض، يقوم بمناقشة الموضوع إلى أن يتغيّر. فهو ليس غبياً، بل يفسّر الأشياء بطريقة مختلفة، كما أن له منطقاً ينقله إلى أماكن لا نصلها نحن المختلفين.

يجلس الآن في سيارة تسير إلى إصلاحية الشباب في شيليفتيو.

للقنطرة فوق غدير كلوكار مكان منخفض، محاط بأشجار صنوبر مدببة في ساندمو. هذا المكان لا يفيد للوقوف فيه بشكل طبيعي، رغم ذلك وقفتُ هناك أمس لساعات. نظرت إلى الأخدود الذي يتدفق ماؤه في الأسفل.

لقد حاولت أن أفهم.

وقفتُ هناك إلى أن وصل ليئارت بسيارته الأمازون وأحضرني. أصبحَ قلقاً وأخذ السيارة لكي يرى في أي طريق كنت أسير. سأل إن كنت قد أصبت بالانهيار مرة أخرى.

أصيبه بالعجز. حين أنهار، فلا يمكنه فعل شيء. يحاول ما في وسعه. وحين أستعيد حالتي الطبيعية، أحبّه. ولكن عندما أكون مكتئبة، يكون حبّه مجرد عبء.

قلت: «لا أعرف، لا أعرف ما إذا كنت سأنهار».

لم يرد. ابتلع ريقه فحسب.

*

الحياة صعبة جداً.

يأخذ المرء شيئاً بدون معنى في ذاته، فيملؤه معنى. هكذا. تقوم ببناء بيت من ورق اللعب، وتأمل بعد ذلك أن يراه شخص ما قبل أن تصل الهزة التي لا مفر منها إلى المنضدة.

يبني المرء لسنوات طويلة، وثم ينهار ما بناه. وحين يتوقع ذلك، يسقط كل شيء، وحينها فقط ينظر الناس. وما الذي يمكن عمله مع الأعوام التي انقضت في البناء؟

وقفتُ وحدقتُ في الماء. بدأت الأشياء على مهل تبرز في السواد. أشياء كانت سوداء. أيادٍ مجهولة تنبش

في حقيبة يدوية. حبة بطاطس تتدحرج على إسفلت ملطخ بالثلج. رأيت الثعلب، ميتاً وحياً.

برزت السيدة العجوز بخطوات متساوية. لم أجرؤ على مواجهتها، لكن العيون كانت مغمضة، ولم تكن تبدو هادئة. لم يكن بإمكاني إعادة التناغم إليها، مهما حاولت.

*

ثمة أشياء كثيرة يمكن قولها ليلقي الضوء على هذا الأمر الغامض. ألسنة لهب صغيرة تجعل المرء يشير ويقول «لهذا»، هكذا كان.

لكن المرء لا يفهم.

كم ينبغي عليك أن تعود إلى الوراء؟

تسعة عشر عاماً، للقطة؟

بدأ الخيط يخرج عن مداره منذ ذلك الحين، دون أن نلاحظ ذلك.

الفصل الخامس

القطّة

سبب وجود بوليدن وسترومفورس هو المنجم. منطقتان صغيرتان ظهرتا في النصف الأول من القرن الثامن عشر لأنهما كانتا ضروريتين، ازدهرتا لفترة، لتنحسرا فيما بعد إلى أن أمسيتا فائضتين عن الحاجة في أيامنا. بعد ثمانين عاماً على ظهورهما، هما بالكاد تقويان على الاستمرار. يفضل الناس السفر بين أماكن عملهم ومساكنهم في شيليفتيو على السكن هنا، فماذا يبقى هنا بعد أن ينهي الإنسان عمله اليومي؟

أخَذَنا ليئارت إلى المنجم مرتين حيث تقع ورشته المسماة معمل ويستر لخدمة سيارات الموظفين والتي يعرفه الناس فيها.

حدق يوحنا بعيون مفتوحة في الماكينات الصاخبة، والمسار الناقل مع المرتكزات وحمام الأحماض. لكن لم يكن الحال بهذا الشكل، كما أعلم.

يقول ليئارت: «إنني مع ذلك لا أفهم. أريد، لكنني لا أستطيع». إنه يعيش هنا منذ عشرين عاماً، رغم أن الجذور تمتد أعمق. إنها مسألة الأجيال.

أبوه تحدث كثيراً عن الظروف التي كانت سائدة في البداية. في زمان قبل زمانه، زمان جده، العهد الذي عاش كلاهما عواقبه.

وقبل ذلك بأعوام ساءت الأمور على نفس الوتيرة التي تحسن بها العالم المحيط. حينها كان المنجم

جديداً والمخزون هائلاً بحيث كان مجدياً أن تحمل الحجر معك إلى البيت، وخلال عدة أسابيع كان يمكنك أن تصنع حلية خاصة بك.

والآن غدا المنجم مغلقاً، ويقتصر العمل على تخصيب المعادن من المناجم المنتشرة حوله.

يعكس المجتمع تطور المنجم. صفقة بعد صفقة ألغيت. بيوت بعد بيوت تركت مهجورة. ثم أغلقت دور السينما وحديقة الشباب. وبعد فترة لم تعد ثمة حاجة إلى متجر الخردوات. وانتهت الأعمال الإجرامية وحتى الشرطة خرجت من المنطقة.

لم يبقَ في الناحية سوى محطة الوقود ومطعم البيتزا. وشعور باهت لا يمكن مسحه.

نحن نجد أنفسنا **بعد** زوال ما كان موجوداً. وهذه ظاهرة ملحوظة. الآثار الوحيدة الباقية هي الماء المحمض الذي لا يسمح لمتماثلات الأرجل أن تعيش فيه.

ونحن نحاول أن نخلق لنا حياة هنا. وإنني أقنع نفسي بأن هذا المكان لا فرق بينه وبين أيّ مكان آخر.

لا خيار لليئارت.

*

ليس ليئارت قاسياً وعديم الشفقة مثلما يبدو، في الحقيقة العكس هو الصحيح. لولا دعمه ومساندته لكان وضع يوحنّا سيئاً منذ فترة طويلة. يشبه ليئارت الكلب الذي لا يتوقف عن النباح لئلا يلاحظ أحد أنه يرتجف

ويشعر أنه بائس. تعلم من طفولته عبراً كثيرة، منها أن ***فعل الشيء الصحيح لنفسه*** أهم من الحبّ. إنه يعتقد بذلك.

لقد اكتسب هذا مع حليب أمّه، أو بالأحرى مع حليب أبيه.

بالكاد أعرف والد ليئارت، التقيت به قبل أن يموت مع والدته في حادث سير، لكن أتته الفرصة ليحتفظ بالإرث وأن يورث من بعده. إن نظرة ليئارت إلى الله زائفة.

لا تساوم، لا رحمة. يوجد سبانخ في الصحن، يجب تناوله، حتى ولو كان فاسداً جداً. فالله يرى في الواقع كلّ شيء، حتى أصغر بقع السبانخ. يرى كلّ شيء، لكنه يختار أن يرى حين يخطئ الإنسان. يقول ليئارت إنه لا يعرف إن كان يؤمن بالله، لكنه يفعل ذلك. في جميع خياراته ثمة حضور لهذا القدير البصير الحكيم. إنه يؤمن. إنه يريد أن لا يؤمن فحسب، وهذا شيء آخر.

لقد قام بذاته وفي ذاته بتخفيف القواعد قليلاً، والتي تسري عليه فحسب، لا عليّ ولا على يوحنّا. أتصور أن هذه حالة متقدمة.

كلا، لم أختر ليئارت لأنني أشفقت عليه. اخترته لأنني رأيت ما هو حقاً عليه. انتقلت إلى هنا من أجل الحبّ. أجل، من أجله.

أيجوز لأحد ما أن يهاجر من بيته مسافة 130 ميلاً من أجل ليئارت؟ أيجوز أن تحبّ شخصاً حاقداً وغاضباً

نسي منذ فترة طويلة ما هو الحبّ؟

أعتقد أنه يجوز ذلك، إن لم يكن الخطأ منه.

إنه لم ينسَ. إنه فقط لم يستطع إظهاره.

لينَارت

التقينا أنا ومنى قبل تسعة عشر عاماً في (ملانسيل)، كهف صغير يقع خارج اويفيك. اضطررت إلى السفر 30 ميلاً جنوباً لكي أقوم بالخدمة العسكرية، وانتقلت هي طواعية 100 ميلٍ شمالاً لتتعلم قيادة جوقة المرتلين في الكنيسة في دورة تعليمية. والموجود تقريباً في ميلانسيل: سكة حديد، ومعهد الشعب العالي.

بقيث أخرج وأضرب بالمطرقة على فواصل السكك الحديدية في مسار السكة الجديدة، وكانت هي في الكنيسة تعزف أناشيد دينية.

تقول مونا إن بعض الأشياء يتم تقريرها سلفاً. إن ثمة سلطات عليا قد قررت كيف ستجري بعض الأمور. وتدّعي أن هذا يسري على كلينا. ربما لهذا السبب باتت خاضعة لحياة تعيشها معي.

*

كان السؤال عن وجود الله يشكل دائماً مسألة مهمَة عندها. وتقول: أنا أبحث عن الله، بينما أنت تهرب منه. لهذا ينتهي بنا المطاف دائماً في ظله.

تقرأ كل مساء برفقة يوحنّا «يا الله، يا مالك الكون». إنه في السابعة عشرة من عمره، وقد قدمث له مساء أمس جزءاً من الرعاية، وكأنه لا علاقة للحالة الأولى بالحالة الثانية.

أرجعتُها من غدير كلوكار حيث أغرق يوحنّا

مسروقاته، ذهبنا إلى البيت، وصلّت معه صلاة المساء، وكأن شيئاً لم يكن.

إلهي الذي يحبّ الأطفال.

ينشدان:

انظر إليّ، أنا الصغير

أينما توجهت،

سعادتي هي بيد الله

تأتي السعادة

تذهب السعادة

يهب الله السعادة لمن يحبّ

هكذا ينشدان. وثمة نهاية بديلة. النهاية التي يقرأها أغلبهم.

تأتي السعادة

تذهب السعادة

وأنت تضحي أبانا

أحبّ هذه الخاتمة أكثر من الخواتيم الأخرى. إن ما يقرؤه يوحنا، يناجي الإنسان فيه ربّاً ربّما لا يحبّ أحداً.

إن من **يحبّه** الله ينال السعادة.

أي: إن من لا يحبّه الله، لا ينال السعادة. فمن تعثر به الحظ يوماً يعني أن الله لا يحبّه. هذا ما ينبغي أن يكون. هذا ما قلته لمونا، لكنها تقول ليس كل شيء يجري بهذا الشكل، إن من يحبّ الله، ينال السعادة. وقلت إن هذا يسيء لله ويصوره أنانياً.

لكن لا يتغير أي واحد منهما. فبالنسبة إلى يوحنّا لا تلعب الكلمات أي دور، فهاجسه هو الروتين فحسب. ربّما ثمة شيء ما بالغ الأهمية، سيجعل الأمور على ما يرام في نهاية المطاف، هذا ما أوضحته له مونا.

وتنظر هي في الحقيقة إلى هذا بنفس الطريقة:

ثمة من في السماء يهب المعنى للأشياء عديمة المعنى التي نتعلق بها هنا على الأرض. وحسب مونا ثمة سبب أعلى لاستلقائي يومياً ثماني ساعات على أرض حجرية وسخة، أكفُر بأكوام اللوالب المزنجرة والخراطيم المهترئة. وهذا يصحّ على يوحنّا أيضاً.

بعض الأطفال لا يجوز أخذهم إلى تمرينات كرة القدم، أو التكلم معهم عن فريق شيليفتيو أي إي كو. نعم هكذا. ومن الواضح أن هناك خيارات أخرى، وأن المعنى يتم إدراكه بالطبع فيما بعد.

بالرغم من ذلك، يفعله المرء؟

وقفتُ أمس مساء ورأيتهما يسبحان. وبعد ساعات على ما فعله يوحنّا بحق السيدة البائسة، آن الأوان لصلاة المساء كالعادة. وعندما صعدتُ كان يوحنّا قد انتهى من تنظيف أسنانه بالفرشاة، وهو يلبس بيجامته، ويخرج من الحمام. كان يبدو عليه الشعور بالعار، وهو يقف عند باب المرحاض. نظر إليّ ثم أطرق. لقد أوضحت مونا، ولقد فهم هو الآن، حسب ما أظن. أراد أن يعتذر إليّ، لكنه لم يستطع التعبير عن الاعتذار.

ولم أستطع أنا أن أقول شيئاً. فقد وقف كلانا هناك

منكساً رأسه فحسب. وقفنا تلك الوقفة حتى وصلت مونا وأخذت معها يوحنّا إلى غرفة النوم.

إنهما يثرثران أثناء الذهاب في الحالات العادية. يصير يوحنّا غالباً مبتهجاً، لأنه يحبّ مراسم الذهاب إلى السرير. يحبّ أن تجتمع كل العائلة، بمن فيهم أنا. وحين يكونان جاهزين، يناديان عليّ. إن دوري يقتصر على الصعود وإطفاء الضوء وأن أقول ليلة سعيدة. وأودّ في هذه الحالة أن أمزح، كيف أتعبني صعود الدرج، وكيف كنت جالساً على كنبة التلفزيون براحة...الخ.

هكذا يريد، لأنه هكذا أصبح، وإلا لم يكن باستطاعته النوم. وهو يضحك في كل مرة. مع أنني أمس كنث واقفاً عند فتحة الباب، ونظرت إليهما، ولم أستطع أن أقول شيئاً من هذا القبيل.

كل مساء، نفس الشيء. تجلس مونا على السرير ويجلس يوحنّا على ركبتيه على حافة السرير، يغمضان عيونهما، ويشبكان أيديهما. لوحة صغيرة معلقة فوق سريره، تحمل صورة الابن والملاك. يلقي مصباح السرير بالضوء عليه، وكأنه ساجد تحت نور أحد الملائكة، الذي قد ساعده خلال النهار.

الشبه مع الصورة أربكني أمس. لا يحق له أن يبدو وديعاً جداً. لا يجوز للمرء أن يفعل أيّ شيء، ثم يمضي ليطلب المغفرة، ويكون كل شيء على ما يرام.

لله نقطة ضعف، إذ أن من الخطأ أن لا يستطيع أحد سواه أن يغفر بهذه السهولة.

روت مونا أن يوحنّا ينظر خلسة أثناء الصلاة. يفتح عينيه جزئياً، يرمق وجهها لكي يرى تعبيراته، وكيف تركز. شعرث بالذنب حين سألتها كيف عرفت ذلك، لكنها قالت إنها عرفت.

بعد الصلاة يقوم يوحنّا عادةً ويستلقي في سريره، ويناديان عليّ. لكنه أمس ظل جاثماً على ركبتيه. ألقى بنظرة تجاهي عند الباب، ثم خفض رأسه ثانية.

سألت مونا: «هل ثمة خطب؟».

نظر إليّ مرة أخرى، وخفض رأسه ثانية. وقد أبقى في أعماقه مطولاً، ما أراد أن يقول.

سألت مونا: «هل تفكر فيما فعلت؟ هل ترغب في التحدث أكثر في هذا الموضوع؟»

حار في الأمر.

- «تفكر في المرأة؟»

* «لا».

- «وماذا دهاك، إذاً؟»

وتردد مرة أخرى قبل أن يردّ.

قال أخيراً: «اليوم هو الأحد».

قالت مونا بدهشة: «نعم؟».

التفت يوحنّا إليّ ثانية.

قال ثانية وبنغم واضح هذه المرة: «إنه يوم الأحد».

قالت مونا: «نعم، إنه الأحد، وكيف، إذاً، هل ثمة شيء خاص في هذا؟».

استمر في النظر إليَ، وفجأة فهمتُ. فهمت ما يدور في رأسه. ليس الهلع مثلما أردتُ. على الرغم من ذلك حركتُ ذراعي مرحّباً، متحسراً.

قلتُ مستسلماً: «حسناً، تعال إذاً».

بسمة واسعة قسمت وجهه إلى قسمين، وأسرع إلى الحمام. لم يقرأ النغم في صوتي. نظرتْ إليَ مونا وكأنها لم تعرف إلامَ تلوذ.

إلامَ يلوذ المرء؟

لم أفلح في إيجاد ما أقوله حين وقفت كي أحلق رأسه. لكنني ضبطت ماكنة التريمر على ثلاثة مليمتر بدلاً من ستة التي نعتاد عليها. تصورت أن الأمر سيأخذ وقتاً طويلاً يكفي حتى المرة القادمة.

لينّارت

سألتني مونا حين التقينا للمرة الثانية: «هل تؤمن بالله؟». ليس في المرة الأولى حين كانت معها القطة، لأننا لم نتحدث في مسائل كهذه. المرة الثانية، حين سألت إن كنت أريد شرب القهوة معها. أرادت التأكد من أنني الشخص الذي يمكن الرهان عليه.

جلسنا في مقهى الكنيسة في ملانسيل وبحثنا عن كلمات على شرشف مزخرف بمربعات حمراء وبيضاء عليها بقع قهوة تركها آخرون.

هل تؤمن بالله؟

أجبتُ: «نعم، ينبغي أن يجلس شخص هناك في السماء ويبعث بجميع الامتحانات».

ضحكتْ.

تكلمنا في هذه المسألة فيما بعد وهي تدّعي أنني قلت لا بدّ أن الله يجلس هناك ويرسل كل اللعنات. لكنني متأكد إلى حد ما من أنني قلت الامتحانات. على الرغم من أن مونا عادة ما تكون على حق، هكذا.

وبعد ذلك أمست جدّية.

قالت وبيدها كوب الشاي «أنا أؤمن بالله»، وفي نفس الوقت نفذت نظرتها فيّ، مضيفة: «يعني، تؤمن بالله».

استمرت في التحديق وكأنها وجهت سؤالاً. لم أفهمه في حينه، لكنها فهمته. اعترفت هي بذلك. فلو أجبت

بالخطأ، لما كان هناك المزيد من القهوة، ولا المعجنات الدنماركية المصنوعة بالزبدة التي سقطت في الصحن وتفتتت. وإن قلث شيئاً سلبياً عن الله، لما خابرتني ثانية.

لم أفعل هذا على ما يبدو.

قلث: «أتمنى لو كنث على صلة أفضل مع ذاك الذي في الأعالي».

ابتسمث حينذاك مرة أخرى.

قالت: «سوف أعلّمك». ولمست ذراعي.

لا أدري إن نجحث في مسعاها.

*

لم أفهم قط ماذا رأت عندي حيث جلست ورقائق الخبز الدنماركي المصنوع بالزبدة التصقت بكل أنحاء قميصي. لم أكن واحداً من الشباب الخطرين المثيرين للإعجاب، أولئك الذين تهيم فيهم الفتيات. كنت واحداً من بين هذه الجموع. على الرغم من ذلك اختارتني.

أقول اختارت لأنها كانت تستطيع تقريباً أن تنال أيَ واحد. كانت جميلة وقوية جداً. حتى في هذه النقطة نبقى متضادين.

تتحدث أحياناً إلى يوحنّا عن القطّة وعلاقتنا وكيف تعارفنا. إنه يرجوها أن تتحدث عني لأنها تريد إظهاري كبطل، على الرغم من أنني جبان حقاً مثل أرنب برّي.

وحين أشك في روايتها، وحين تتصور ما تريد،

تقول: «ترى المسألة بطريقة، وأنا أراها بطريقة أخرى». وبقيت معي حتى بعد أن عرفتني جيداً على حقيقتي. وحين تزوجنا، بكت في الكنيسة من السعادة. وأرادت أن تنجب طفلاً مني.

لا بدّ من أن يكون ثمة خطأ فيها. ويُعتبر يوحنّا عقوبةً لها على اختيارها. أو أن أقوم بإعادة الوضع إلى الوراء. لا تحبّ مونا المزاح في مثل هذه المسائل. وعلى الرغم من أنها استأنفت العمل بعد أن كبر يوحنّا بشكل كافٍ ودخل المدرسة، لم ترد أن تعمل كقائدة جوقة المرتلين في الكنيسة. قالت إنها أرادت أن تعمل في مكان آخر، فأصبحت مشرفة على أوقات فراغ الطلبة. لم تقل قط لماذا بدلت مهنتها. فالله هو الذي يحفظها. ربّما ليس بنفس الطريقة التي كانت من قبل، لكنه هنا موجود بشكل ملحوظ. لم تهرب من ظلمه. إنها تحاول اكتشافه في مكان آخر فحسب. وأنهت فيما بعد عملها كمشرفة على أوقات الفراغ أيضاً. على الرغم من أنه لم يكن صعباً جداً أن نفهم الأسباب في تلك الفترة. قدّمت طلباً للإجازة المرضية في السنوات الأخيرة.

أتمنى لو تجد شيئاً مناسباً لها. أتمنى أن يكون ثمة شيء يلائمها. أن يكون لديها المزيد من الوقت حين تذهب إلى البيت. لا تفكر مونا كثيراً، فتصدر منها الفقاعات. تذهب وتتمشى في الحديقة، لكن هذا لا يزيل الأفكار.

أطلب منها أن تعزف في الكنيسة مرة أخرى، لكنها لا

تفعل. تقول إنها لا تريد.

مونا

أول مرة التقينا أنا وليئارت كان في أمسية البيت المفتوح في الكنيسة. وفي الحقيقة بعدها، لكن أول مرة أراه، كانت هناك.

لم تكن للكنيسة علاقة بلقائنا، فهي أحد الأماكن القليلة في ملانسيل حيث يذهب الشباب لقضاء الوقت مساء. وقعت عيني عليه عند الباب حيث كان برفقة بعض أصدقائه يتحدثون متباهين وكأنهم ملوك. كنت جالسة لوحدي مع كتاب، وأرمقهم. أخذت أقرأ وجوههم، وأفهم ما يدور في خلدهم.

لا أدري لماذا، لكنني لاحظتُ أن نظري تعلّق به. شعرتُ أن لديه شيئاً عميقاً يفتقده الآخرون. بتواضع اندفع خارجاً بحذر من خلال قساوته يدّعي أنني على خطأ. لكنني رأيتُ هذا العمق، في ذلك المساء الأخير حين كنت في طريقي إلى البيت من المقهى.

*

كان الجو مظلماً في الخارج، لقد داهمنا الخريف ولم أكن معتادة على الظلمة. وثمة شيء غريب ومرعب يجثم في الخريف على نورلاند. يهيمن الضوء بشكل تامّ في الصيف بحيث لا نميّز الظلام حين يحضر ونستغرب حين يخيّم علينا. إن الظلام يأتي زاحفاً وينشر الرعب.

مشيت طوال الطريق، وغنيتُ في إحدى المرات لكي أطرد الظلام. يبدو الأمر مضحكاً ولكني مضيت مترنمة

بأغنية «الضوء الصغير الذي أملكه». ولا أزال أغنيها إلى اليوم في أعماقي لاستحضار حدث ما، لن يترك أيَ أثر. غنّيتُها في سيارة الأمازون حين ذهب يوحنّا إلى البيت بلا حذاء. وعندما وجدت أبي ميتاً في بيته كذلك. لهذه الأغنية مفعول المسكّن في بساطتها.

شمعتي الصغيرة

ستضيء الظلام،

نورها يبقى مشعاً،

يشع، ويشع، ويشع....

توقفت إحدى السيارات بالقرب مني على الرصيف. كانت مصابيحها مشتعلة، مما ساعدني على ملاحظة أن الأبواب كانت مفتوحة وأن الظلال تتراقص في النور. أخذتُ أغني بصوت مرتفع، بينما كنتُ أحث الخطى في المسير.

حين اقتربت من السيارة، شاهدتُ العصابة من مقهى الكنيسة، واقفين يبدو عليهم أنهم لا يعرفون ماذا سيفعلون.

*

سألتُ حين وصلت إليهم: «ماذا جرى؟».

الشبان الذين يسقط عليهم الضوء من الكشاف ينظرون إليَ.

قال أحدهم مبتسماً: «قطة ركضت في الطريق»، وهو يشير بقدمه إلى جسم ذي شعر ميّت في الخندق.

« على الرغم من أنها لم تستطع الذهاب بعيداً».

القطة بيضاء. بالكاد يتسطيع المرء أن يراها تحت ضوء الكشاف، ساقطة على الأرض تظللها الأعشاب، وتبدو رمادية.

أسأل: «ألا تزال حيّة؟»

يقول أحدهم: «نعم، إلا أن حالتها خطيرة».

يجلس على ركبتيه أمام جسد الحيوان يتفحصه دون أن يلمسه. إنه ليئارت. و يبدو مهتمّاً ومتألّماً.

يقول: «يجب أن نأخذها إلى طبيب بيطري، إنها في حاجة إلى إسعاف».

يجيب الشاب الأول: «نعم، حتى ولو أنها قطة شبه ميتة، وينبغي علينا أن نعود خلال عشر دقائق».

يقول آخر مؤيّداً: «إن جيري على حق، يجب أن ننسحب، وأنت تعرف ماذا الذي سيقوم به الجنرال أندرسون إن تخلفنا عن التفتيش. القطة ستموت وحدها بمجرد أن ندعها بسلام».

يلتفت إلى ليئارت.

يوضح: «القاعدة هي أن القطة التي لا تستطيع تدبر أمورها مع السيارات محكوم عليها بالموت».

يأخذ الباقون بالتململ، ويبدو أنهم أقروا بأن هذا هو قانون الطبيعة؛ أن تدهس السيارات القطط. إلا أن ليئارت يبقى في مكانه ويقول: «لا نستطيع تركها هنا، ستعاني، وهذا ظلم».

ينظر الآخرون إلى بعضهم البعض.

يومئ الأول برأسه قائلاً: «لا، إنه ظلم حقاً، كان ينبغي أن نضعها على الطريق وندهسها مرة أخرى، لئلا تعاني أكثر، ولأصبح بإمكان (ليلّة) التصرف ودفنها في باحة الثكنة، ولرجعنا نحن في الوقت المحدد».

يضحك الآخرون قليلاً، ضحكة ليست فظة وليست باستخفاف، بل ضحكة رفاقية. إنهم يعرفون جيداً أن ليئارت حساس، ويقوم بمساعدة الضعفاء.

ويقول رابعهم، صاحب السيارة الذي كان ساكتاً حتى اللحظة: «لا يجوز دهس أي قط هنا مرة أخرى».

ويضيف: «من الأفضل رميها بحجر على أن ندهسها. إذ أن الدهس مكلف».

الآخرون يومئون رؤوسهم.

ويصرّ ليئارت: لا، علينا أن نأخذها إلى البيطري، لا يهم ما يقوله أندرسون. ربّما يمكننا إنقاذها».

يتنهد الآخرون وينظرون إلى بعضهم بعضاً. يتكلم الولد الأول باسمهم.

«لا يمكننا التهرب من واجباتنا من أجل قطة ستموت في كل الأحوال، أنت تعرف هذا جيداً».

ينظر ليئارت إليه كأنه لا يوافقه على الإطلاق، قائلاً: «أجل، أجل، اذهبوا أنتم، سآخذها بنفسي إلى الطبيب البيطري».

- «صحيح، لكن»...

* «اللعنة، ليئارت»...

يتنهدون مرة أخرى، وهم على وشك الاستسلام.

يقول صاحب السيارة: «هل ثمة بيطري في هذه المنطقة؟».

يرفع ليئارت القطة بحذر إلى سترته.

«يوجد بالتأكيد طبيب بيطري في مكان ما في هذه الأطراف»، يقول ليئارت عابساً.

الباقون يتنهدون مرة أخرى، يبدو عليهم الإذعان للأمر. يصعدون إلى السيارة مفسحين مكاناً لليئارت أيضاً.

«يا فتاة، هل تعرفين أي طبيب بيطري في هذه الأنحاء؟»، سأل الولد الأول، وكان سؤاله أشبه بمحاولة إغواء من أن يكون مجرد سؤالٍ بريء، أمراً يمكن أن يعوّل عليه في المرة القادمة. هكذا هم الشباب.

على الرغم من معرفتي بعنوان بيطري، إلا أنني لا أتذكره. بلى، هناك بين غرفتي والكنيسة ثمة لوحة إعلانية وردية اللون بحروف ملتوية تظهر كلباً داكناً اصطادَ قطّةً، والقطعة مرسومة على شكل قصة قديمة لـ(ايلسا بيسكوف). كنتُ أقف عادة وأشاهدها أحياناً حين أمر هناك. أحببتها، لكنني رأيث أنها لا تناسب بيطرياً، ولا صندوق بريد عائلة يعيش ضمنها أطفال.

لكنني لا أرى أي شيء ذي أهمية في كلّ ذلك.

أومئ برأسي: «مسافة قليلة إلى الأمام من الطريق».

تنطبق أبواب السيارة، فيأخذون بالمسير في الطريق. يطلبون مني الصعود إلى السيارة، ولكن لا يوجد فيها مكان شاغر، فأستمر في المشي في الظلمة. حبات الحصى على جانبي الطريق تطقطق تحت نعالي.

أقوم بالغناء مرة أخرى.

مونا

حين رأيت اللوحة الوردية انعطفت نحوها. لم تكن السيارة مركونة في المرآب، إلا أنني ذهبت عبر البوابة. كانت غرفة الانتظار فارغة، فطرقت باب غرفة الفحص وفتحته بحذر.

كان ليئارت وإحدى النساء المرتديات مئزراً أبيض واقفين بجانب سرير معاينة أخضر حيث تستلقي القطة. ولم يكن الآخرون هناك. كانت المرأة تهمّ بلبس زوج من القفازات المطاطية لتبدأ بفحص القطة.

انتهى كل شيء بسرعة. ضغطت المرأة قليلاً على بطن القطة، وهزت رأسها بعد ذلك، وقالت: «سأعطيها حقنة، لكي تغفو. أيّ أمرٍ آخر لن يؤدي إلا إلى إطالة معاناتها».

يومئ ليئارت رأسه، ولم يبدِ احتجاجاً.

لينّارت

كان ينبغي رمي القطة بحجر، حجر كبير جداً، لا أن نأخذها إلى البيطري لكي تطول معاناتها لنصف ساعة إضافية. على الرغم من أن الطبيبة البيطرية لم توافق على رأيي حين سألتها، إذ قالت: «حسناً فعلتم بجلبكم إياها إلينا، لا يعلم أحد أبداً ماذا سيحدث».

هي قالت ذلك لأنها أحبت كسب 250 كرونة، إنه أجر جيد للعمل لساعة واحدة. كان ينبغي أن نحل المشكلة بأنفسنا، على الرغم من أنني ومونا لم نتعرف على بعضنا البعض بعد. لكن من أجل القطة كان ينبغي علينا قتلها حالاً في مكانها.

حصل ليئارت على شرشف أبيض للف القطة. وحين سألته ماذا ستعمل بها، أجاب: سندفنها.

وسألته: «ألن تبحث عن صاحبها؟».

وتساءل بدوره: «وما جدوى هذا؟ وبعد لحظة تفكير، قال: «سوف ألصق وريقة في واجهة أسواق ايكيا، إن أردتِ».

*

ذهبت معه حين ذهب إلى خارج الطريق منعطفاً باتجاه طرف الغابة. كنت أمشي إلى جانبه دون أن أقول شيئاً. ولم يتكلم هو، ولكن قد انتابني شعور أنه فعل ذلك لأنه توصل إلى شيء ليقوله.

سألث: «أتريد أن تقوم بهذا لوحدك؟».

تمتم: «لا، فالمشاركة جيدة».

*

وهكذا بقيت واقفة في الظلمة عند حافة الغابة، أنظر إلى شاب لا أعرفه، يحفر بواسطة حجر حفرة ليضع فيها قطة ميتة. كان الحجر كليلاً، فاستغرقت العملية فترة طويلة. شعرت بالبرد يغزو أنحاء جسمي، لكنه لم يتوقف.

وعندما أكمل عمله، أنزل الجثة محاطةً بالبطانية برفق، وأهال التراب عليها، ووقف ساكتاً لحظة كأنه

يصلي. وقفث إلى جانبه. لا أدري إن وقفنا لمدة طويلة.

أعتقد أننا وقفنا لمدة طويلة.

ولا نزال واقفين هناك تماماً بشكل ما حتى هذا اليوم، لأنني أراه إلى الآن تحت ذاك الضوء.

الفصل السادس

واقعة اليرقة

يوحنّا

المَدرسة مكان لعين بحسب ما يقول أبي أحياناً عندما يشعر أنني لا أستمع إليه. قالها عن مَدْرَسة بوليدن، والمَدرسة الموجودة في شيليفتيو، وهو لا يتوقف عن تكرار هذه المقولة إلى أن تقول له أمّي كفى، فيقول حينئذ: «اللعنة على المعلِّمة ليندمان»، ثم يعود يشتم: «إنها لا تبادر أبداً إلى تقديم أية مساعدة لنا».

أبي يشتم. لا يشتمني أبداً، بل يقوم بشتم ما أقوم به، أو يشتم ما يحدث لي. تقول أمي: إن ثمة فرقاً كبيراً بين أن يشتم وبين أن أنسى أنه يشتم. فلا أفعل هذا لأن أبي يقوم بشتم أشياء جرت لي قبل سنوات. إنه يتذكر الأشياء. «إنه يتخبط» تقول أمّي، وهذا يعني أن تعود تتذكر الأمور السيئة مرة بعد أخرى.

إنه يتناول أقراص تريو كومب بدون جدوى، عندما تنتهي الأقراص يبقى في البيت أحياناً ولا يذهب إلى عمله. قال أبي إنه يعاني من الصداع منذ أن رزقوا بي. ولا أعتقد أنه يقصد الإساءة فيما يقول لأنه ضحك أثناء قوله ذلك. وتقول أمّي إن أبي يحبّني أكثر من أي إنسان آخر.

لا، إن أبي لا يشتمني.

لم يقولوا لي لماذا لم يتم تسجيلي في مدرسة بوليدن العليا قط، بل قالوا إن مدرسة بريين في شيليفتيو تلائمني بشكل أحسن، وكفى.

أبديتُ اعتراضي بقولي: من يعرفُ إن كانت مدرسة بوليدن مناسبة لي أم لا؟ فإنني لم أجرّبها بعد. لكن المعلمة ليندمان قالت حينذاك إن المرء على الرغم من كل شيء يمكنه أحياناً أن يعرف مثل هذه الأمور.

ارتكبتُ حماقات كثيرة حين دخلتُ المدرسة المتوسطة، ربّما ذلك سبب عدم سماحهم لي بالاستمرار في الدوام هناك، إلا أن المعلمة ليندمان قالت إنّ ذاك غير صحيح، لكني أشعرُ بتأثيره.

لا أدري لماذا ارتكبتُ حماقات. قال لي التلاميذ: «افعلْ هذا!». ففعلتُ، فكانوا يضحكون، ويشجعونني بوصفهم إيّاي بالشجاع والجيّد. وتحصل أشياء متشابهة في الفصل. لا يمكن للجميع أن يجيدوا لكز الكرة، أو التهجّئة، لكن كل واحد يجيد شيئاً ما، هذا ما تقوله أمّي. أنا شجاع وأقوم بأعمال لا يجرؤ الآخرون على فعلها. أشياء أجيدها.

جاءتني المعلمة ليندمان إلى البيت حين أخبرتنا أنني سأبدّل المدرسة. كانت عادةً تخابر البيت حين أرتكب أية حماقة، لكنها أتت هذه المرة إلى البيت عند استبدال المدرسة.

بدت خجولة بعض الشيء حيث وقفت في ردهة تعليق الملابس لأنها لم تكن تتكلم بثقة كبيرة بالنفس مثلما هي عليه في المدرسة. سألت عن حالي، فأجبتها أنني جيّد جداً، فبدتْ أنها لا تعرف كيف تردّ.

بعد برهة صمت، تساءلت أمي إن كنت أريد أن أريها

غرفتي. قالت المعلّمة ليندمان إنها جميلة، لكنها في حاجة إلى الكنس قليلاً. طلبث أمي أن آتي بأسطواناتي. الآن عندي رف كامل مليء بالأسطوانات، لكن حين بدأت الدوام في الإعدادية لم يكن عندي مثل هذا العدد الكبير.

وضعتُها على السرير وقالت المعلمة ليندمان إنها كانت تملك واحدة منها. كانت أسطوانة (كنت). قالت إنها كانت جيدة، إنها الإصدار الأول منها. وحكت أنها كانت تمتلك كل أسطوانات كنت.

تساءلت أمّي إن كنت أحب أن أستمع إليها بينما هما تتكلمان قليلاً في المطبخ. وأغلقت الباب بعد ذلك.

تكلمتا لوقت طويل جداً. انتهت الأسطوانة، فاستمعتُ مرة أخرى إلى «حين تهبّ الريح على القمر» قبل عودتهما. كانت المعلمة ليندمان هي التي تتكلم حينذاك، وأبي وأمي واقفان عند الباب، يمسك أبي بيد أمي وقد بدا لي أنها قد بكث. لكنها بدت سعيدة أيضاً. يمكن أحياناً أن يسعد المرء ويحزن في نفس الوقت.

إنها على الأغلب هكذا.

قالت المعلّمة ليندمان إن مدرسة بيرينان في شيليفتيو كانت جيدة، إنها أيضاً كبيرة، وتلائمني أفضل من مدرسة بوليدن. وإن مدرسة بوليدن افتقدت إلى الموارد لكي تعتني بي.

لقد صدر القرار أصلاً، قالت. ولم يعد ثمة شيء يمكن عمله.

*

انتاب والدي غضب شديد، أحسست بذلك بينما كان يظنني نائم. قال إن المعلمة ليندمان والآخرين نفضوا المشاكل عن أنفسهم فقط لا غير. هل كان من الصعوبة إلى حد اللعنة أن يجدوا معلماً مساعداً مناسباً؟

مونا

لم يدخل يوحنا قط مدرسة بوليدن الأساسية. أريد أن أذكر أننا بعثناه ثلاثة أميال إلى شيليفتيو لفائدته. كان هذا أفضل ما كان باستطاعتنا عمله. وحين أعود بتفكيري إلى الوراء، أحس أن كل هذا كان بمثابة مهانة، وجرح لمشاعره. لقد أجبرناه على شيء لم يرغب فيه، فأصبحت الأمور أسوأ.

لقد أصبح وضعه صعباً، كما قمنا بحرمانه في الوقت نفسه من شيء كان يتمناه لسنوات عديدة.

عندما كان صغيراً وكنتُ أرافقه إلى المدرسة، كان يشير غالباً إلى مبنى المدرسة الأساسية ويقول: «عندما أكبرُ سوف أذهبُ إلى هناك».

هذا ما لمسناه من أمل في أن يدخل عالم «البالغين» في يوم قادم. حكى أن المرء هناك باستطاعته أن يشتري الحلوى في فترات الاستراحة، وأنه هناك، بدلاً من الرحلات المدرسية، يضع التلميذ كتبه في خزانات. وحين كبر قليلاً، وأصبح في حاجة إلى تغيير ظروفه السابقة التي لم تعد تتلاءم معه، تحدث عن مبنى المدرسة الإعدادية كمكان يكون فيه كل شيء أفضل، وأنه يلعب كرة الطائرة أثناء استراحة الظهيرة. ويجلس مع من يريد في الفصل.

لكن لم يحدث هذا قط. وحين أوشك الموسم الدراسي على الانتهاء، تقرر أن يداوم في فصل خاص بذوي الاحتياجات الخاصة في مدرسة بريان في

شيليفتيو.

يطلق عليه، اسم فصل خاص. فصل للخاصّين. كان للذهاب إلى مدرسة متميزة وقع سلبيّ، لكن كان بالإمكان مسحه بمجرد تبديل اسمها إلى اسم آخر.

زارتنا المعلمة ليندمان في البيت لمناقشة المسألة. وشعرتُ مباشرة أن القرار قد صدر من المدرسة من قبل، لكنهم أرادوه أن يكون قرارنا.

قالت إن ذاك سيكون أفضل له حيث يملكون موارد لمساعدته.

ما الذي كان بالإمكان قوله؟

صدقناهم. قام ليئارت بشتمهم حين غادرتُ، إلا أنني لاحظتُ أنه اعتقد في قلبه أن القرار كان صائباً. لم يكن لدينا أي سبب لكي نشعر بشيء مختلف.

يحتمل أنهم اعتقدوا بذلك هم أنفسهم. لا أعتقد أنهم قاموا بطمس المشكلة عمداً.

مونا

أتصور غالباً أن طريق الحافلات هي التي وجّهت يوحنّا للذهاب إلى المدرسة في شيليفتيو، وأن المشاكل التعليمية لم تكن مسألة جدية مثلما كانوا يدّعون.

ولكن ما الذي أعرفه أنا؟ هناك أفلام في رأسي فحسب، أفلام من الدراسة المتوسطة، تروي قصة متطابقة، يظهر يوحنّا في جميعها مذنباً وبريئاً في ذات الوقت في نظر الآخرين.

أكتفي هنا برواية حادثة اليرقات، والتي سببت طرد يوحنّا، والتي أراها أسوأ ما حصل معه. على الرغم من أنهم لم يسمّوا ذاك الإجراء طرداً، إذ لا يجوز طرد أي طالب في المرحلة المتوسطة في مملكة السويد. فقد كان مجرد «غير مرغوب فيه بقية أيام الأسبوع» حسب تعبيرهم.

*

بقيت معه في البيت في الأيام التي كان فيها موقفاً عن الدوام. أيقظته في الصباح الأول مبكراً، جلس مترنحاً عند منضدة المطبخ، يؤدي واجباته التي بعثتها معه المعلمة ليندمان. كنت أعتقد أنه سيعمل بشكل أكبر مما يعمل في المدرسة. وقد أنجز فعلاً كل واجباته في وقت قصير. فأنجز في نصف النهار الأول كل ما كان ينتظر إنجازه خلال الأسبوع، مما جعلني فخورة وحزينة في نفس الوقت.

كان ذكياً، لكنهم كانوا لا يأملون منه أيّ رجاء.

أجبرته على الجلوس والقراءة طوال منتصف النهار في كل الأيام الأخرى أيضاً، والتمرن على دروس اخترتها له عشوائياً. عن بلدان (يحتمل أنه لن يزورها أبداً)، قصائد، الحروف الصوتية والصامتة. أدى كل دروسه على أحسن وجه بدون أي احتجاج. ثم استراح في بقية اليوم، ليشاهد التلفزيون، ويساعدني في الطبخ لليئارت. وكان يتمتع باستحسان ليئارت لإعداده صوص اللحم المفروم.

استحالت العقوبة إلى مكافأة في نظري، وذهبت كل إجراءات المراقبة هباء. كانت محاولة من المدرسة لكي نقوم أنا وليئارت بعمل ما. وثمة إصبع تشير إلينا بأن اضطراب الانطواء الخلقي منذ الولادة والذي يعاني منه يوحنّا كان خطأ منّا.

*

واقعة اليرقة لم تكن في الحقيقة خطرة. كانت الفكرة بريئة وساذجة إلى درجة أن يسخر منها كل من يرى الأشياء بشكل مختلف. لكن الأشياء كانت هي نفسها. كان التوقيف أبعد من أن يكون نتيجة ما حدث في الأسابيع السابقة. ربّما كان على الأغلب كرة الثلج التي رماها على غرفة المعلمين.

نعم، كرة الثلج. نفترض هذه أيضاً.

قام الأطفال بتشكيل كرة ثلج وقالوا له أن يرميها على غرفة المعلمين. فعل ذلك كما قالوا. دخل. نظر

المعلمون وبأيديهم أكواب القهوة وشاهدوه واقفاً هناك.

شاهدوا ما كان في يده.

طلبوا منه أن يلقيها على الأرض. وهو يتردد، ورفع بعد ذلك يده. تلفت حوله متعباً ليختار هدفاً، فاختار المدير الذي كان رجلاً لطيفاً صغير الجسم، له مظهر بليد، وشاربان، عمل في مدرسة بوليدن طوال عمره. وقد كان معلّماً لليتّارت في المدرسة الثانوية.

رمى كرة الثلج من مسافة مترين ضارباً بها رأس هذا الرجل صغير الجسم.

لماذا اختار المدير؟ لقد تمعنت في الأمر.

أكبر مقطع شعري؟

صدفةً؟

لم أسأل قط. أنا نادمة الآن، لأنني أشعر أنني أريد أن أعرف، وأن يوحنّا قد نسي الواقعة تماماً، لا لكونها غير مهمة، فثمة أمور كثيرة يتركها المرء كما هي، وهو راضٍ على عدم فهمها.

ويحتمل أن لا وجود لجواب.

لم يكن يوحنّا يرمي بشدَة، فهو لا يقوى على ذلك، إنه يرمي مثل الفتاة، لكن هذه المرة فقط كانت ذراعه قوية، ورمى فأصاب الهدف. ولمحتُ أثر كشطة على جبين المدير حين كان واقفاً عند الباب ينتظر قدومي لأجلب يوحنّا. ولم يبدُ غاضباً، بل كان على الأغلب محبطاً.

«نغضّ الطرف هذه المرة». قال لي وهو يلمس جبينه، كأنه يدفعني إلى عمل شيء ما.

قام الأولاد بصنع كرة الثلج من ثلج أصفر. حكى لي يوحنّا. لا أعتقد أن المدير يلاحظ شيئاً ما، لأنه لم يتحدث عن ذاك بينما كان يقوم طوال الوقت بفرك أثر الجرح على جبينه. ترك الأمر يمضي هذه المرة، لكنه لن يسمح به مرة أخرى.

إن الأمر متوقف على كيفية عمله.

أكان يوحنّا مذنباً بحادثة اليرقة؟ نعم.

هل هو المذنب الوحيد؟

هل ثمة آخرون مذنبون مثله؟

الفيلم الذي في ذهني عن اليرقات فيه الكثير من الثغرات التي قمتُ بملئها. لم أكن هناك، إلا أنني أعرف ما فعلوا، وأعرف أن يوحنّا لم يكن «مرغوباً فيه» في المدرسة بعد الواقعة ببضعة أيام. لم أدعْ يوحنّا يملأ الثغرات قط، على الرغم من أنني أردت أن أعرف. حاول أن يروي كل ما جرى حين أرجعناه من المدرسة، وأراد أن يقول إن الآخرين كانوا معه، لكنني قاطعته وقلت إن عليه أن يتوقف ضمن حدود ما قام به، فسكتَ.

أحبَ ليئارت لو ألقى باللوم على غيره، هذا ما فهمته من لغة جسده. أنا أفهم كيف نظر ليئارت إلى الأمر، لأنه لم توجد أية عدالة فيما آلَ إليه الأمر.

«هل ابننا المعاق في حاجة إلى أن يلعب دور

المسيح أيضاً؟». ألقى بهذا السؤال، حين وصلنا البيت وحدنا. لا يواجهني أبداً أمام مسمع الآخرين.

ماذا يكون جواب ذاك السؤال؟

لم تكن ثمة عدالة، لكن ماذا تعلّم يوحنّا من ذنبه؟

هكذا رأيت المسألة.

يبدأ الفيلم أثناء استراحة قبل الظهر.

ماذا يفعل يوحنّا؟ لا أدري. فيمَ كان يفكر خلال الاستراحة في المدرسة المتوسطة؟ كل هذه الأشياء لم تكن واضحة عندي قط. «كنتُ في الخارج»، قال لي حين سألته. أو «في الداخل» حسب الطقس. إنّ تواجده في أي مكان يعني أنه قام بعمل ما هناك. تصورتُ أنه كان منهمكاً في الأكل لفترة طويلة. عبث بالطعام إلى أن انتهت فترة الاستراحة. وأخذ بعد ذلك، في اللحظة الأخيرة، ينظر إلى الآخرين وهم يلعبون. أم كان يشاركهم؟

أثناء واقعة اليرقة وضعته لسبب ما، على كوم ثلج، جالساً يراقب الأطفال الذين يحفرون كهفاً ثلجياً.

أيمكن أن يعتبر مشاركاً معهم لأنه يلثم قفازاته الملوثة بالثلج؟ فقد اعتاد أن يفعل هذا منذ الصغر. وفي كل الأحوال سيصلون إليه.

لا أعرف بالضبط من كان أولئك. بالطبع يونس، وأوريان، وروبرت. لقد ذكرهم بأسمائهم قبل أن أقول له لا تلقِ بالمسؤولية عليهم. يحتمل كان معهم أيضاً

دانييل، وهانّس وماتّة كمشاركين من الدرجة الثانية. هؤلاء الثلاثة كانوا يجلسون دائماً في المقاعد الأمامية أثناء حدوث أي شيء. أبرياء كالحمل الوديع، لم يروا شيئاً قط. يصادف دائماً أن تكون أبصارهم موجهة إلى أماكن أخرى. لم أكن أحبهم في فترة «الوردة». فقد كانوا يذكّرونني بالضباع في فيلم الأسد الملك، بانبطاحيتها وميلها إلى الخداع.

حتى الأطفال يمكن أن يكونوا على هذه الشاكلة.

ربّما كان يونس وأوريان من جاءا بالفكرة. خططا للجزء الأكبر منها، وذهبا بعد ذلك إلى يوحنّا لتنفيذها. كنتُ أرتاح إلى يونس وأوريان أكثر من الضباع، على الرغم من أنهما جذر هذه الشرور. ربّما لأنهما لم يكونا وقحين قط، وأشعر أنهما ذهبا إلى يوحنّا لكي يشاهدا عملية الشغب، لكنها لم يجرؤا على القيام بها بنفسيهما.

أتساءل كيف سارت أمورهما أثناء دراستهما الثانوية. ربّما سارت بشكل جيد، لأوريان ويونس. والآخرون لا يزالون باقين هنا، مثل جميع شباب مركز المدينة بدون أهداف واضحة. يركبون السكوتر عندما تسمح لهم الثلوج بذلك، ويصرفون في أوقات أخرى مبالغ ضمان البطالة في السُكر. وفي أفضل الأحوال تعلموا قيادة الشاحنات لكي يستطيعوا البحث عن عمل لم يعد موجوداً في المنجم منذ فترة ليست ببعيدة.

في كل الأحوال ها هم يصلون إليه. ينظر إليهم ويومئ برأسه، فاهماً أن الأوان قد آن مرة أخرى لعمل

شيء ما. كيف يكون رد فعله في داخله؟ هل يسعد لمشاركته لحظة، وللعب دوره؟ أم يشعر بالتناقض، مدركاً أنه مقدم على ارتكاب خطأ، وفي نفس الوقت لا يجرؤ على الرفض؟

أضع دائماً الاحتمال الأول. يتباهى بشفافية عندما أقرّ بأشياء فعلها في المدرسة. ليس عاراً، فإن الانطواء يجعل التمييز بين الصواب والخطأ أصعب. في اعترافاته تكمن سعادة الانتماء. كان شيئاً ذا أهمية. كان مطلوباً.

كان ينتابه هذا الشعور حتى وصل إلى قصاصات السعادة. أجبرته خيبته في أن لا أحد كتب أنه كان شجاعاً، على نفي كل الأفكار التي وردت خلال الشهور الأخيرة من الفصل السادس.

لكن ذلك بدا متأخراً جداً إذ أن الأثر كصانع للمشاكل انطبع هناك ثابتاً على الجبين.

يصلون إليه.

- «مرحباً، يوحنّا. كيف الحال؟».

يتكلم يونس كالعادة.

* «بخير»

- «ماذا تفعل حالياً؟».

* «لا شيء معيّن».

تقهقه الضباع حوله وهو جالس هناك في كوم الثلج مثل طفل صغير. لكن أوريان يسكتهم.

- «كم كان الأمر ممتعاً حين رميت المدير بكرة الثلج في الجمعة الفائتة! كم كان رائعاً! كدت أنفجر من الضحك أثناء مطاردتهم لك في ساحة المدرسة.

«وأنا أيضاً». يومئ له يونس.

ينتظرون أن يجيبهم يوحنّا، لكنه يبتسم باستحسان، فيضطرون إلى مواصلة الكلام.

- «بدا ممتعاً للغاية. غضبت أمك بشدة، أليس كذلك؟»

* «لا، ليس إلى هذه الدرجة. قالت إنه ينبغي أن لا أقدم على مثل هذه الأفعال. لكنها لم تغضب بشدّة».

- «أمّك لطيفة، فلو كانت أمّي لضربتني حتى الموت».

تعلم يوحنّا بمرور الوقت أن تعليقات كهذه إنما هي مبالغ فيها، لكنه مع ذلك يضحك حسبما يتطلبه الموقف.

* «على الرغم من أنها حزنت قليلاً».

- «الأمهات دائمات الحزن. إنه عملهن».

يومئون برؤوسهم مرة أخرى، وبتروٍّ هذه المرة. انسلّ بطريقة ما تعليق صادق جدير بالتأمل.

يسود لبرهة سكوت يقترب من حدود الألم في حال لم يتلاءم مع الخطة بصورة جيدة.

يتساءل يونس: «ماذا ستفعل في فترة استراحة الغداء؟»

* «لا أدري».

- «ربّما تريد أن تقوم بجولة في المدينة؟».

* «أجل، لكن لا يجوز ترك محيط المدرسة».

- «لا... ولكن إذا كان ذلك لفترة قصيرة فلا بأس. أو ما رأيكم؟»

يلتفت يونس إلى الآخرين الذين يضحكون هازين رؤوسهم بتملق.

بالرغم من أن يوحنا لا يلاحظ عليهم ذلك.

- «نلتقي، إذاً، عند الغداء؟» يقول أوريان.

يمضي الآخرون في الطريق. لا يتبعهم. هذه هي القواعد. عليه أن ينفذ ما يريدون قبل أن يقبلوا به.

بعد ذلك بقليل يرن الجرس. يتجه الأطفال من أنحاء ساحة المدرسة باتجاه المداخل. إلا أن يوحنا يظل جالساً بعد أن سكتت الساعة. وبعد ثوانٍ، يتم تمييز الفارق. كأنه يجلس لبرهة، مستغرقاً في التفكير فيما

يجري، فيبدأ حينذاك بالتحرك على مهل، يمشي متثاقلاً ليدخل الفصل.

هذا هو ما يدور في فيلمي.

*

يجلس يوحنّا على نفس كوم الثلج بعد الغداء وينتظر. يأتون عنده مرة أخرى. لم يتناول الغداء معهم، لكنهم يسلّمون عليه كأنهم سعداء للقائهم به. وتنقسم المجموعة بعد ذلك. يذهب يوحنّا، ويونس، وأوريان وروبرت إلى سبيلهم. وتبقى الضباع في ساحة المدرسة.

عندما ذهبوا أصبح يوحنّا في الوسط، كأنه انضم إليهم. وكأنهم يقودونه خارجاً.

*

يذهبون إلى محطة بنزين اوكو لشراء اليرقات. لم يذهبوا إلى ايكيا حيث يبيعون مثل هذه الأشياء. أعرف ذلك لأن ليئارت كان هناك يسأل عن هذه الأشياء. في ايكيا أولاً بدون نتيجة، وفي المحطة بعد ذلك.

مثلما قلت، لم يقبل ليئّارت أبداً أن يتحمّل يوحنّا لوحده كل المسؤولية، لهذا ركب الدراجة الهوائية وذهب إلى بوليدن سائلاً إن شاهدوا بضعة شبان هناك اشتروا اليرقة في نفس الفترة. يريد أن يعرف، في حال أثيرت النقاشات مجدداً عن تلك الخطيئة المرتكبة.

أجل، لقد شوهدوا.

في الاثنين الفائت، جاء أربعة، أو خمسة أفراد، اشتروا علبة يرقات ذباب وحزمة مشروبات فيزي هوبا، وزعوها على أنفسهم، ودفع بعد ثوانٍ أحدهم سعرها.

من دفع؟

إن من دفع المبلغ كان ولدا صموتاً. لم يتذكروا أشكالهم وملبسهم وغيره سوى أنهم كانوا زبائن غير مألوفين قاموا بشراء بضاعة غير مألوفة. كان ليئارت مهتاجاً وعلى قناعة تامة بأنهم خدعوا يوحنّا لكي يدفع.

لكنني لست متأكدة إلى هذا الحد. لا يحمل يوحنّا عادة معه النقود. ربما كان روبرت الذي أراد أن يظهر لهم المودة، لكي يتحسن الوضع قليلاً.

*

لم يحدث الشيء الكثير في بقية اليوم. يعودون إلى المدرسة دون أن يُفتضح أمرهم، يلتحقون بالضباع. ينضم يوحنّا إلى العصابة في فترة العصر. ولا يتبين شيء غير ذلك.

يتم استخدام العلبة لأول مرة في اليوم التالي. ومن سيقوم برعاية اليرقات في الليل؟ حاولت معرفة إن كان يوحنّا على غير عادته ذاك المساء، لكنني لم أتوصل إلى نتيجة. يحتمل أن روبرت هو من أخذها. أو أن يوحنّا قد أخفاها في مكان أمين، فاستطاع أن يستكين. ربّما في الصندوق الذي تم فيه الاحتفاظ بوريقات لشهرين في الفترة الأخيرة؟

يدور في رأسي أنّه يتسلل إلى غرفته، يغلق الباب

ويسدل الستائر. على الرغم من أنه لوحده في غرفته، إلا أنه يلتفت حوله قبل أن يخفي العلبة في الصندوق. ينظر إليها لحظة. يتبيّن من وجهه الاستهجان. لا يطيق ليئارت رؤية الحيوانات محبوسة في الأقفاص، ولا يتحمل رؤية الأبرياء محرومين من حريتهم لأجلنا. فأصدقاء الحيوان يكرهون مثل هذه الأمور. وها هو يوحنا يفكر في ذلك حين يقوم بإغلاق غطاء الصندوق. لكنه لا يستطيع إطلاقها، يتناقض دوره في أن يكون شجاعاً وأن يغدو شخصاً يقوم برعاية اليرقات. يقف مطولاً وهو يفكر، ويفتح بعد ذلك العلبة ويرمي اليرقات في الصندوق. يقف لحظة لينظر إليها وهي تزحف إلى قعر الصندوق. ويحسب هذا مساومة يمكنه العيش معها. فيقوم بسدّ الغطاء، ويسدل الستائر الفينسية، يفتح الباب وينزل.

مونا

يوم جديد. صالة الطعام. حشوة خبز البيتا في لائحة الطعام.

وصلوا مبكرين، قبل أن يصل أحد يمكن أن يكتشف أمرهم. يقومون بذلك ببراعة. يقف يونس وأوريان وروبرت أمامه في الدور، وتقف الضباع خلفه، مما يجعل رؤيتهم من قبل الآخرين أصعب. حين يصل أوريان إلى ماكنة الحليب تواجهه مشكلة ما، فيرتبك ويتكسر الزجاج. وحين تهرع عاملات المطعم لمساعدته، يقوم بسكب اليرقات في حشوة خبزة بيتا بعيدة عن الأنظار.

يأخذ المغرفة وينبش مثلما قيل له. انتشرت اليرقات في الحشوة، كجزء من محتوياتها. جعلتها الحرارة تتوقف عن الحركة. ينبغي أن ينجو بعضها، وإلا لن يتم كشفها. أقصد حشوة البيتا في مطبخ يورن، كم من هذه المحتويات يمكن تفحصها؟

ربّما كانت مرارة اليرقات هي التي كشفتها، إذ أن خليط البيتا ليس مر الطعم طالما لم تدخل يرقات الذباب في محتوياته.

يأكل الأطفال مشمئزين.

تجلس فتاة على إحدى الموائد، تبدو باهرة. إنها ذات الفتاة التي جالست يوحنًا قبل حوالي شهرين، وثم أشاحت بوجهها عنه بعد كتابة قصاصات السعادة.

كانت قد لفّت خليط الرز وحشوة رغيف البيتا وأكلت بشهية. ويكتشف المرء أن ثمة خطأ ما عندما يدقق في وجهها. تلفظ البيتا من فمها، و تمسكها لتفحصها. تكتشف أن ثمة شيئاً غير طبيعي أثناء تناولها الطعام وفي جلستها. تستولي عليها الدهشة، ويبدو عليها أنها فقدت السيطرة على نفسها. تنقلب معدتها فتتقيأ مباشرة على المائدة. حين يعلم الآخرون ما تناولوا، يقومون بلفظه في الصحن. ويبدو أن اليرقات التي تم بلعها، بقيت في المعدة.

تعمّ الفوضى.

*

تقف هذه العصابة وراء كل حادثة غريبة. إنهم يتوزعون على مجموعتين، يأكل يوحنّا مع روبرت، ويونس وأوريان. تجلس الضباع متظاهرة بالبراءة تماماً عند مائدة أخرى. يبتسم زملاء يوحنّا فرحين لما أنجزوه، متعجبين من التأثير الذي تركه على البيت الصغير.

يشاركهم يوحنّا الابتسامات حين يقوم الآخرون بالإيماء ويهمسون. لكن يبدو عليه على الأغلب أنه لا يفهم تفاصيل ما يجري.

مونا

قليل من التفاصيل عن واقعة اليرقات:

نيكلاس هو أحد الجالسين الذي تقيأ ما أكله ويدرس في الصف الرابع. سوف يتذكر بعد سنوات هذه الواقعة ويريد من يوحنا أن يكررها في قاعة الطعام في مدرسة برينان.

وبعد عام سيقومون معاً بسرقة امرأة بائسة، تسقط وتضرب رأسها بالشارع. يمكنني الادعاء بأن هذه قصة مختلفة تماماً، على الرغم من أنها ليست كذلك، فكل ما يفعله المرء، وكل ما يجري، مترابط بعضه ببعض. ولا بدّ للإنسان من أن يقبل بهذا. الكيس معلق بالحبل، والجرذ في الكيس والحقيبة في الماء. كل ما يحدث، يضفر خيطاً يتابعه المرء بدون وعي منه.

الفصل السابع

صندوق يوكموك

كنتُ أول المنتقلين إلى هنا. وقدم أبي لاحقاً بعد فترة طويلة. انتقل كلانا إلى جهة «خطأ». شمالاً، إلى بلدة تحتضر بهدوء. وقد شعر أبي أيضاً أنه يقترب من الموت، لهذا رأى المنطقة ملائمة له.

انتقلتُ من أجل الحبّ. لكن أبي كان يبحث عن شيء غير معلن، أكثر من أن يكون هروباً من اللاشيء. كانت عادة شرب المشروبات الكحولية هي الأمر الوحيد الذي كان يملكه في مالمو، وقد جلبه معه.

أتساءل كيف سارت أموره. أن يموت في مكان لم يتوفق قط في جعله بيتاً له؟ لم يتخلص من السرطان الذي كان ينخره بعد وصوله نورلاند.

لا أدري إن كان يشعر في داخله بالندم. وعلى الرغم من كل شيء فهو لم يعتد على العيش في الفيستربوتن، بغاباتها الصنوبرية المظلمة الشاسعة، الرطبة الوعرة أو الرملية الجافة، وبدروبها الإسفلتية الضيقة الطويلة التي تشق القرى والأرياف الواهنة المؤدية إلى ناس يغمضون عيونهم عن المستقبل.

لم ينس قط الطبيعة المفتوحة لجنوب السويد، والحقول الصفراء، والتلال. فقد جعلها أسطورة جديدة. ليست الحياة هنا بأحسن حالاً. إنّ الحياة المعيشية لمجتمع الجنوب السويدي، بعكس ناسها، هي الأفضل. إنّ الخمر له حضور واضح هنا، والقصائد تختفي بين الملابس الداخلية. فالجنوب شيء مختلف كثيراً.

ها هو مدفون الآن هنا محاطاً بأشجار الصنوبر. أشعر كأنَه كان بالأمس، على الرغم من أن الأيام قد بدأت بسَوق ذكراه إلى بعيد. فقد مضى عليه شهر واحد الآن.

*

لقد انتقل كل ما كان لوالدي إلى ابني يوحنّا. وهذا هو سبب كل حديثي عنه. إنه وسيلة للتوضيح هنا. امتدّ خيط يوحنّا بجميع عقده حول جده، وعمّت الفوضى الخارجة عن السيطرة، دون أن يلاحظها أحد ما. إن حكاية الجدّ مثلها مثل وريقات السعادة، تشكل قطعة في لغز (لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد؟).

إن أردت أن تفهم الأمر فلا بدّ من أن تكون لديك الصورة الكاملة. ولن تصل إلى هذه المرحلة بلا آثام.

يوحنّا

الجدّ هو الإنسان الأطول عمراً الذي أعرفه، أو الذي عرفته، لأنه ميتٌ الآن. مات في الشهر الفائت الذي حصلت فيه على كاميرته.

الجدّ ميّت، لكنه غير مفقود بشكل تام. إنه باقٍ وموجود في السماء، وذاكرتنا. يتم دفن الجسد ويهال عليه التراب. لكن الذي كان جدّي حقاً لم يمت بذاته. إن الجسم ليس إلا قشرة تنتفي الحاجة إليها عندما يشيخ المرء كثيراً.

حكت أمّي كل ذلك في الليلة التي مات فيها جدّي. قالت إنها فعلت ذلك لئلا أحزن فيما بعد، «حين أفهم»، ولكي أحزن الآن قليلاً. قالت العبارة الأخيرة بهدوء ملتفتة إلى بعيد، كأنها كانت تحكي مع شخص آخر لم يكن حاضراً هناك.

الكاميرا جميلة جداً، حصلتُ عليها بعد أن مات. لقد قال من قبل إنني سوف أحصل عليها عندما يموت، وها هو قد مات فحصلتُ عليها.

تظهر الصور الملتقطة بعدما أربط كومبيوتر أمي بوصلة. حصلت على مجلد خاص بي لحفظ صوري. يطلقون عليه في الواقع ألبوم الصور، إلا أنه في الكومبيوتر يسمى مجلداً.

تقول أمّي إن الحواسيب تعرقل الأمور، إلا أنني أتصور أنه سهل. وليست بمشكلة إن اختلفت التسميات.

*

كانت الكاميرا أجمل شيء حصلت عليه من جدّي، لكنني حصلت منه على صندوق خشبي أيضاً. إنه أثمن من الكاميرا بكثير، لأنه يحوز على أهمية كبيرة. حصلت عليه من جدّي بعد انتقاله إلى هنا قبل ستة أشهر، بفترة قصيرة جداً.

وفي الحقيقة ليس هذا بشيء جيد. حين رأيته عنده كان يشبه الصندوق الذي صنعته يدوياً في الصف الرابع. مكتوب على الغطاء (يوكموك)، وهذا هو اسم الساحر الذي يملكه في الواقع. لا يحق لك أن تأخذ أشياء الآخرين، لكن أحياناً يكون من الصعب تطبيق هذا المبدأ.

كان ذلك حين سألت لماذا مكتوب يوكموك على الغطاء، فتحدث الجدّ عن سرّ الصندوق. يوكموك الآن مدينة في الوقت الحالي، إنها حديثة العهد. والقصة هي:

تقام كلّ عام سوق كبيرة جداً يأتي إليها ناس كثيرون من جميع أنحاء نورلاند لبيع بضائعهم التي صنعوها بأيديهم. تقام السوق في الشتاء حيث يكون الطقس بارداً، ولا يحدث هذا بالصدفة، بل لكي يتمكن سحرة الثلج أيضاً من المجيء. لم أكن أعرف ما هو ساحر الثلج، إلا أن الجدّ قال إن ذاك ليس بأمر مهم، لأن من يعرفون ليسوا كثيرين. وهذا شيء جيد، وإلا لهام الجميع على وجوههم، خائفين طوال الوقت. وإن

الأشخاص الكبار وحدهم يعرفون الشيء الذي كان ينوي أن يرويه لي. سحرة الثلج يتحدرون من العصر القديم. ولا بدّ لهم من أن يكونوا في جوّ بارد، وإلا لماتوا. إنّ قلوبهم بالتحديد مصنوعة من الجليد الذي يذوب حين يتعرض للحَرّ.

يمكنهم أن يصعدوا في الشتاء ليكونوا بيننا، إلا أنهم في الصيف لا بدّ من أن يهربوا إلى الكهوف تحت الأرض التي يملؤونها بالجليد لكي يحتفظوا ببرودة أجسادهم.

يعتقد الكثيرون أن الجليد في البحيرات يذوب خلال الربيع، كما أخبرني جدّي. لكن في الواقع إن سحرة الثلج هم من يقطعون قطعاً من الجليد خلسة، ليأخذوها إلى كهوفهم. وعندما تتشكل فتحات في البحيرات المتجمدة، يقوم سحرة الثلج بقطع صفائح غليظة من الجليد. لا يعلم أحد إن كان سحرة الثلج يفعلون ذلك عن ذكاء. سألت لماذا لا يهاجرون إلى القطب الشمالي، إذاً؟ قال الجدّ إنه لا يعرف.

وسأل هو بدوره كيف بدت هيئاتهم.

فكرت في الجواب.

قلث: «يبدو الشيب في شعرهم بوضوح».

قال الجدّ: «صحيح».

«ولحى طويلة بيضاء».

«نعم»، بدت على الجدّ الدهشة. «كيف لك أن تعرف هذا؟ هل التقيتهم؟» انتابه القلق.

«لا، أخمّن فحسب». قلتُ. وأطلق جدّي زفرة.

«بلى، لحى طويلة بيضاء»، واستمر: «إلا أنهم يقصون لحاهم عندما يذهبون إلى السوق لكي يبدوا أناساً مألوفين، لكنها لا تلبث أن تعود لتنمو بسرعة فائقة. كيف تتصور ملبسهم؟».

إلى حد اللحظة كان حدسي صحيحاً، فشعرت بقلق كبير من أن أخطئ هذه المرة.

«ربّما كانوا يرتدون ملابس حمراء؟» قلتُ بعد بعض الوقت.

«يا إلهي، يا إلهي!»، ردد جدّي قائلاً: «صحيح ثانية!».

- «وطاقيات حمراء؟».

* «أجل، أحياناً. لا بدّ من أنك التقيتَ أحداً منهم؟».

هززتُ رأسي.

- «يشبهون تقريباً بابا نويل؟».

* «نعم، إنهم يشبهونه حقاً. على الرغم من أنهم طوال القامة بدلاً من أن يكونوا بدينين. وعيونهم شريرة».

- «لماذا هم شريرون؟».

«ليسوا شريرين». فكر الجدّ مليّاً: «ليسوا بالأسوأ على كلِّ حال. إنهم غاضبون لفقدهم صندوقهم الملكي، ويعلمون أنه بحوزة البشر».

«أيّ صندوق؟» سألتُ فيما كنت أنظر إلى الصندوق

على المنضدة، ولم يرد الجدّ على السؤال.

فعدتُ أسأل: «لماذا لا يعيد البشر الصندوق إليهم، ليعودوا لطيفين مرة أخرى؟».

تأوه جدّي، قائلاً: «هذه المسألة معقدة شيئاً ما، إذ أن الصندوق سحري وله سلطة كبيرة. إنه ليس بصندوق عاديٍّ، بالرغم من أنه يبدو كذلك. يريد البشر الاحتفاظ به لأنهم لو أرجعوه إلى سحرة الثلج، لأخذوه إلى ملكهم الذي سيُخرج قلبه ليضعه في الصندوق».

إن سحرة الثلج يستطيعون خلع قلوبهم دون أن يموتوا، هكذا قال لي جدّي. هكذا إذاً.

«لو وضع ملك سحرةِ الثلج قلبَه في الصندوق، لصنع سحراً يجعل الشتاء أبدياً في كل العالم».

نظر إليّ بجدّ. مكرراً: «شتاء أبدي».

قلتُ: «ولكن هذا سيعود بالخير على سحرة الثلج إذ ستنتفي الحاجة عندهم إلى الاختفاء».

رفع الجدّ صوته: «خير لهم، أجل!» وأضاف: «لكن تصوَّر حال الناس إن كان هناك شتاء دائم؟ لو لم يكن ثمة من صيف أبداً لما استطاع أحد زراعة البطاطا والرز وما شابه. حينذاك سنموت جوعاً في النهاية. هذا شيء سيئ».

بقينا ساكتين لبرهة. كان مرعباً تصور ما كان سيحدث في حال استعاد سحرة الثلج صندوقهم.

سألتُ: «أذاك هو الصندوق؟»

أومأ جدّي برأسه.

«نعم. يبدو من الغطاء. أترى مكتوب عليه (يوكموك)؟».

كتبها سحرة الثلج بقلم اللحام.

«إنه اسم ملك سحرة الثلج. وهذا هو الصندوق الذي يبحثون عنه».

وقف على رجليه.

قال: «أتعرف أيّ شيء ثمين عندنا أمامنا؟» وأردف: «لهذا القدرة على قتل الناس جميعاً على الأرض».

* «واااه!!»

روى الجدُ أن سحرة الثلج هم الذين قاموا بإنشاء السوق، لهذا تسمى سوق يوكموك. إنهم يريدون أن يخدعوا إنساناً مغفلاً ليأتيهم بالصندوق. يريدون أن يجلب الناس صناديقهم المصنوعة يدوياً في البيوت لكي يبحثوا بينها عن صندوقهم لعلهم يجدونه.

قال الجدّ: «نجحوا في خطتهم، وأوشكوا على استعادة الصندوق لولا أنني سبقتهم إلى المكان».

وضع الصندوق في حضنه وداعبه بحنان.

سألت: «كيف حصلت عليه؟».

«بالصدفة، حقاً. كنث في السوق لتفقد أشياء أخرى، مثل سكاكين جميلة وما شابه. وكان هذا موجوداً في نفس الكشك. حاولت سيدة عجوز شراءه بدون أن تعرف ما هذا. اشتريته مباشرة وقفزت إلى السيارة وغادرت المكان بسرعة بحيث لم يستطع سحرة الثلج

رؤيتي، فنجوثُ بجلدي».

*

جلسنا لوقت طويل ننظر إلى الصندوق فحسب. قام الجدّ فوضعه على المنضدة مرة أخرى. كان مثيراً أن تكون قرب شيء ثمين جداً.

سألته: «أين ستخفيه؟».

ردّ جدّي فجأةً: «لا، لا يمكن إخفاؤه! حتى لو حاولت إخفاءه، ومررت به أمام أحد سحرة الثلج لوجده مباشرة! إن من الأفضل أن تدعه أمام الأنظار، حيث لا يفكرون فيه».

وحين سألت إن كان يمكنهم أن يقرؤوا اسم يوكموك عليه، قال الجدّ إن سحرة الثلج لا يحسنون القراءة جيداً.

مال الجدّ على المنضدة، قائلاً: «هكذا هو الأمر، إنني كبير في العمر بحيث لا أقدر على رعاية الصندوق. الأفضل هو أن يقوم أحد الشباب الأقوياء بحراسته».

رمقني لحظة وقال: «احرسه جيداً».

* «أنا؟».

- «نعم، لديك ما يلزم للقيام بذلك».

* «ولكنني لا أعرف كيف أقوم بهذا العمل»...

- «كل ما عليك فعله هو أن تضعه أمامك حيث تراه كلّ يوم، فلا يمكن لأحدِ أخذه منك».

* «أيمكن وضع شيء فيه؟».

- «نعم، يمكن. ومن الأفضل أن يكون ثمة شيء في الصندوق لتطمئن».

يوم حصل يوحنا على الصندوق كانت نظرته إليّ نظرة شك حين كنتُ أذهب لجلبه من المدرسة. كان يحتضنه ولم يسمح لي بالاقتراب منه، دون أن يبوح عن السبب. شعر أبي بالذنب وقال حسناً فعل يوحنا بروايته ما جرى وأعطاني الحق في أن أعرف، إذ قال لي باختصار ما الذي قاله في أذن يوحنا.

كان محرَجاً ويخشى أن أغضب، وأن يؤثر ذلك على علاقتنا ببعضنا البعض. لكنه لم يقل إن كل شيء كان مصطنعاً. لم يرد أن يبطل السحر ليوحنا عبر إقراره بذلك.

ولم أقل أنا شيئاً، بل أومأتُ رأسي فحسب، اعترفت بذلك، مؤكدة على العمل على إظهار أن الصندوق كان سحرياً.

*

كان يوحنا في الأسابيع اللاحقة على الأغلب واقفاً يستطلع من خلال النافذة مترقباً نزول الظلام. وواصل القيام بهذا باستمرار على الرغم من أنني حاولت عدة مرات إفهامه أن الصندوق كان صندوقاً عادياً اشتراه الجدّ من سوق مدرسي للحاجيات المستعملة في بوليدن. إن آمن شخص بشيء، فهو يتعلق به، ولا تغير الحقائق التي يعرفها في الواقع من إيمانه شيئاً. يمكن لرجال متعلمين أن يجعلوا الأرض تقف على ظهور الفيلة، وأن تُخلَق في سبعة أيام، وأن يمشي الناس فوق

الماء، وغيرها من أمور لا يفكرون في صحتها أو خطئها. هذا هو الإيمان.

الإيمان يجعل من العيش في العالم سهلاً وصعباً في آنٍ واحد.

*

واصلا بعد ذلك اختلاق قصص، وتعاونا على ابتداعها، على الرغم من أن يوحنّا لم يعِ دوره. ذهب أبي إلى المكتبة العامة واستعار مجموعة حكايات أسطورية، اقتبس منها أفكاراً صاغ منها أجوبة على أسئلة يوحنّا. كان من المفترض دائماً الاعتقاد أن مخلوقاتهم موجودة في الواقع.

صلتهما ببعضهما البعض أفرحتني، وأثارت عندي شيئاً من الغيرة والحسد في كل مرة روى لي يوحنّا عما فعلاه، حين كنا نعود إلى المنزل سوية بعد انتهاء دوامي اليومي.

أنا ويوحنّا نعيش معاً، نأكل، ونؤدي الواجبات البيتية، ونشاهد التلفزيون معاً. لكني أشعر أحياناً بالتقارب، وأن حياتينا متوازيتان، قريبتان من بعضهما طوال الوقت، لكنهما في الواقع لا تلتقيان.

وأشعر أنني لا أحقق تقدماً حقيقياً.

الفصل الثامن

المدرسة الجديدة

مونا

ثمة فرق بين الأمل والرجاء كالفرق بين أن *تتوصل إلى* شيء وبين أن *تحاول التوصل* إلى شيء، إذ أن الفرق كبير. عندما يرسل أحد ما ابنه المصاب بالتوحّد إلى مدينة غريبة لكي يتدبر أموره في أقسى ظرف ممكن، مدرسة أساسية عليا، يمكنه أن يتمنى برجاء أن تسير الأمور على خير ما يرام، إذ أنه لا يشعر بالأمل.

يكون لديه رجاء في أن يحلّ كل مشاكله، لكنه في داخله لا يعتقد بذلك.

بهذه الطريقة يكون الرجاء هو الأفضل.

رافقته في اليوم الأول عند ذهابنا إلى شيليفتيو، وبعد ذلك لم أعد أستطيع ذلك. كانت المعلمة ليندمان أيضاً معنا، وبدورها صارت هي عاجزة كذلك.

لقد رافقته بضعة أيام بكل سرور، يومياً بعد الدوام المدرسي، إذ اعتقدت أن ذلك سوف يفيد. لكن لا يجوز أن تكون بمعية أمّك حين تبدأ الصف السابع، لا يجوز أن تكون معها. اليوم الأوّل فحسب يكفي وأكثر.

في الليلة اللاحقة لم أستطع النوم. كنا في المدرسة لساعتين فقط، فبذلت جهداً كبيراً، وفكرت كثيراً كيف أقوم بتحليل الموقف والانطباع، أشرح أدق التفاصيل، خالقة لعدة احتمالات في رأسي. كان جزء منها جيداً، بينما أكثرها كان فظيعاً. كنتُ أشعز كأنني أرافقُه مرة أخرى في اليوم الأول للدوام المدرسي. عدتُ إلى هذا طوال الوقت. وضعت حتى فاكهة في حقيبته المدرسية ليتناولها حين يشعر بالجوع. لكنني رأيته من مكاني هناك أنه لم تسنح له فرصة ليأكلها، إذ أن فترة تناول الفواكه قد انتهت كما كان يبدو. تسلّلت بعد بضع ساعات صاعدة إلى غرفة يوحنا. كان مستغرقاً في نوم عميق. هو لا يفكّر إلا في حال الضرورة. وقفتُ عند حافة السرير وتأملته، محاولة رؤية العمر في وجهه، وأن أرى إن كانت إعادته البداية الثانية للمدرسة إلى سن السابعة مرة أخرى، أم أنه كان لا يزال الولد ذاته ذا الأربعة عشر عاماً؟

كلما أمعنت النظر إليه، رأيته طفلاً. الولد ذو الأربعة عشر عاماً لم يلبث أن بهتَ بسرعة. قام بفرك عينيه قليلاً، وتزحزح بنفسه، لكنه لم يستيقظ.

مسدتُ شعره، كان خشناً. بصيلات شعره نمت بشكل متعاكس.

تمتمتُ إلى الطفل الغافي: «أين نتجه، معك؟ أين نولّي وجوهنا؟».

يوحنّا

رافقتني في اليوم الأول أمّي والمعلّمة ليندمان في الحافلة للذهاب إلى المدرسة في شيليفتيو. أخذت أمّي إذناً من عملها، وكذلك فعلت المعلمة ليندمان.

« نعم، ينبغي أن أكون مع الفصل»، قالت حين سألتها أمّي: «يوزعون عليهم في اليوم الأول الكتب والدفاتر وما شابه فحسب. أريد أن يمضي هذا على ما يرام بالنسبة إلى يوحنّا».

أخرجت أمّي منديلاً، لكنها قالت إنها لم تكن حزينة، بل دخل في عينها شيء ما.

لا تدخل الحافلة إلى ستروم‌مفورس، فصعدناها عند الموقف الواقع على الطريق الرئيس المؤدي إلى شيليفتيو. كانت السيارة معنا في اليوم الأول، إلا أننا ركناها عند الموقف لأن أمّي قالت إن ما ستقوم به في الأيام القادمة هو الأهمّ. كانت المعلمة ليندمان هناك قبلنا حين وصلنا.

بينما كنا ننتظر مرّ بعض زملائي في الفصل القديم راكبين الدراجات الهوائية وهم في طريقهم إلى المدرسة. سلّموا عليّ في أول صباح، لكنهم لم يفعلوا ذلك في اليوم التالي.

كانت أمّي تجلس معي في الحافلة، وجلست المعلمة ليندمان على المقعد الذي إلى جانبي. كنا جالسين في أقصى المقاعد الخلفية. وعندما تجلس في المقعد

الأخير يكون بإمكانك أن ترى جميع من يصعد إلى الحافلة، على الرغم من أن الحافلة التي كنت أركبها لم تكن مملوءة بالركاب.

قالت كلّ من أمي والمعلمة ليندمان طوال الوقت إن كل شيء سيكون على ما يرام. قالتا ذلك مرات عديدة بحيث أصبحت أشعر أن لا شيء سوف يتغير نحو الأحسن.

- «سيكون لك أصدقاء كثر» قالت المعلمة ليندمان.

ثم أثنت كل واحدة منهما على المدرسة، وتكلمتا عن لطف المعلمين فيها، وإن الأمور سوف تغدو أفضل. إلا أن مدرسة بريبنان لم تكن بتلك الجودة التي تحدثتا عنها، كانت مؤلفة من عدة طوابق أيضاً مثل مدرسة بوليدن، ألا أنها لم تكن بعلوها. رأيت المبنى رديئاً إلى حد ما، لكن أمي تقول لا تحكم على الشيء من مظهره. مع ذلك كانت مدرسة بريبنان أكبر من مدرسة بوليدن. كنتُ أحبها. وكانت توجد في المدرسة ممرات طويلة، مع خزانات على جدرانها. كانت الخزانات عالية وصفراء. الطالب في المرحلة التمهيدية العليا يحفظ كتبه ودفاتره في خزانات بدلاً من المقاعد، لأنه طوال الوقت يبدل الفصول والمعلمين. لا يجوز أن تترك كتبك في حجرة الدراسة لأن تلاميذ فصول أخرى سيكونون فيها وتختلط الكتب ببعضها البعض. كان لون بعض الخزانات قد بهت. وعلى بعضها كتب بعضهم شتائم. لكن كل ذلك لم يكن له تأثير لأنه عندما يصبح المرء

أكبر لا يعير هذه الأمور أهمية.

لم أحصل على خزانة، فقد كانت جميع دروس الفصل الذي سأدخله في نفس الغرفة طوال الوقت، وكان المقعد المدرسي مفيداً بقدر الخزانات، قالت لي المعلمة ليندمان حين سألتها، حيث سيكون هذا أفضل لي لأن أغراضي ستكون معي طوال الوقت. لقد كانت على حق في هذا، طبعاً. إلا أنني وددت لو أحصل على خزانة.

*

كان الفصل الذي أدرس فيه يحوي عشرة تلاميذ فحسب، ومعلمتين ستكونان معنا طوال الوقت. العدد كبير بشكل غير مألوف. وبالرغم من ذلك لم نقم بالكثير في اليوم الأول. قلنا أسماءنا، وقمنا بكتابتها على السبورة السوداء، رغم أنها لم تكن سوداء، بل كانت بيضاء، وبدل الطبشور تُستخدم أقلام ملونة.

إحدى المعلمتين قالت إنها في الحقيقة ينبغي أن تسمى بالسبورة البيضاء، ولكن يمكن تسميتها بالسبورة السوداء. واعتادت على ذلك لأنها كانت دائماً تنسى اسم السبورة. وقامت بعد ذلك بكتابة اسمها (كارين) بقلم أحمر وقالت لنا أن نكتب نحن أيضاً أسماءنا.

كلهم استخدموا نفس القلم الأحمر، ألا أنني استخدمت قلماً أزرق. قالت المعلّمة إنني حسناً فعلت بتبديلي اللون، إذ أن كلهم يعرفون بعضهم من قبل، لأنهم كانوا يدرسون في نفس المدرسة في المرحلة

المتوسطة، وأنا كنت جديداً على الفصل الذي كان جديداً أيضاً.

استلمنا كتباً لنضعها على مقاعدنا، وبعد ذلك دعتنا المعلمات لتناول العصير وكعك الفانيلي، فأنهينا دوامنا لذلك اليوم وخرجت كل من أمّي والمعلّمة ليندمان وأنا إلى الموقف وركبنا الحافلة إلى البيت ثانية. رأت المعلمة ليندمان أن الأمور جرت على ما يرام.

*

لم تستطع أمي والمعلمة ليندمان مرافقتي في اليوم التالي، فقامت معلمتي السابقة في الرياضة دوريس بالقيام بتلك المهمة بدلاً منهما. لم أكن أعرفها تمام المعرفة، لكنني الآن عرفتُ بالضبط أين كان كل شيء موجوداً لأريها إياه.

في اليوم الثالث ذهبتُ وحدي، كان كلّ شيء مثلما كان في البداية.

مزّق كريستر كتاب اللغة السويدية الخاص بي من دون أن تنتبه المعلمتان. قال ماتياس إنني فعلت ذلك. لم يصدقنني حين قلت لهن الحقيقة. قلن إنهن عرفن أنني اعتدت على إثارة الشغب. وقد انتهينا من هذا الأمر الآن. فلو كان بإمكاني بدء الدراسة في بوليدن لما حدث ما حدث. إنني على يقين من ذلك.

الفصل التاسع

البطاطا الهائلة

مونا

يجلس في السيارة الفضية، وأنا أنظر إليه.

من بذلته أعلم أن اليوم هو يوم متميز. يوم لن يتكرر ولن يعود ثانية. لكن أليست كل الأيام مثل هذا اليوم، متميزة؟ لا يوم يعود ليعاش ثانية. إنها آثارها التي تتركها فحسب، ولا يمكن إزالة الآثار.

وهذا هو ما أحاول بالضبط أن أبيّنه في كلّ ما أرويه. نعتقد أننا نتحكم بالأشياء التي حولنا، لكننا في الحقيقة محكومون بها، سواء كبيرها أو صغيرها، ولا يمكن تحديد الشيء الذي يوصلنا إلى المكان الذي نصل إليه أخيراً.

خذ على سبيل المثال البطاطا التي وجدها يوحنا وأبي. كم يبدو الأمر تافهاً حين يعيد المرء التفكير فيه. لكن المفتاح موجود في مثل هذه الأحداث، إذ لا يمكن أن تجده بطريقة أخرى غيرها. بدون البطاطا ما كان يوحنا ليجلس في هذه السيارة لنقله من البيت.

هكذا تم عقد الخيوط.

علّمتُ والدي الزراعة حين انتقل إلى هنا. كان يجلس منتظراً موته فحسب في السنة الأولى، هذا هو ما فعله بالضبط في السنوات الثلاثين الأخيرة في مالمو. إلا أنني أتيتُ في السنة الثانية بسطلين من حبات البطاطا وبضعة أكياس من بذور الجزر. لم أضع أمامه خياراً آخر. طلبتُ من ليئارت أن يجلب محراثنا اليدوي القديم. اقترح أن يقوم هو بحراثة الأرض، لكن والدي قال إنه يستطيع أن يقوم بهذا العمل بنفسه، وأن على ليئارت تعليمه كيفية القيام به فحسب.

تمنيت أن ينجح هذا العمل. كانت أمنيتي أن يستمر به في العام التالي. لم أكن أعتقد ذلك، لكن المرء أحياناً لا يحتاج إلى الاعتقاد بقدرته على تحريك الجبال. أحبّ والدي هذه العمل، خابرنا في العام التالي وطلب أن يستعير المحراث. اشترى في العام الثالث واحداً لنفسه، يشبه محراثنا، وهكذا استمر العمل.

كان يقوم بنفسه بالحراثة حتى السنة الأخيرة حين أصبح طريح الفراش بعد كل ما جرى، فعجز عن زرع البطاطا.

كان والدي يعرف كثيراً في الزراعة: الغرس، والتشتيل، ورعاية النبتة في مراحل نموها. النباتات والخضار مثلها مثل أولادنا، تشبهنا ونعرف كيف تنمو وكيف نرعاها. يتابع المرء الدورات الحياتية للمزروعات ريثما تتراجع إلى الوراء حين ينتهي وقتها.

جميل حين تسقط الثلوج الأولى في الحديقة ويغدو كل شيء ساكناً ثانية. تبدو أغلب الأشياء جميلة حين ينظر المرء بطريقة صحيحة، لكن النظر إلى حديقة الخريف ليس صعباً. فالبرد القارس والانحلال لا يعني الاستسلام، بل يعني صبراً على انتظار أن تستأنف العمل، أن تبدأ من جديد.

أحبّ الجد الانتظار. اعتاد أن ينتظر، لكن هذا الانتظار كان يختلف. الانتظار لا يعني النهاية.

*

حين قام يوحنّا بزيارته، كانا غالباً في الحقل يقلعان الأعشاب الضارة. كان يوحنّا يحب هذا، لأنه كان يقوم به أسرع من الجد، وكان الأخير غالباً ما يثني عليه ويقول له كم هو ذكيّ. كان الجد يقف على رجليه عادة، يجفف جبهته بكمّ قميصه، وينظر إلى يوحنّا إلى أن ينتبه يوحنّا إلى أنه كان ينظر إليه.

- «لا يمكن هذا بدونك، ولا نحصل على البطاطا بدون مساعدتك».

لم تكن هذه حقيقة، مثلما لم تكن ذات أهمية.

عندما مات الجدّ، استغرق يوحنّا في النوم والصندوق الخشبي في حضنه. لم يكن يبدو حزيناً ولم يكن الموت لديه يعني النهاية. وحين غفا، لم أستطع أن أسحب الصندوق منه، فقد كان متشبثاً به بقوة، كأنه كان كنزاً أحاول أن أسرقه منه.

البطاطا التي وجدوها، كانت على سطح مكتبه مع

علبة أعواد الثقاب التي كانت موجودة في جانب
المكتب.

كنت معهما حين اكتشفا حبّة البطاطا الكبرى. حدث هذا قبل وفاة الجد بيومين. كانت هي المرة الأخيرة التي أرى فيها والدي حيّاً.

كان يوحنّا ووالدي في الحقل وهما يخرجان البطاطا التي كان ينبغي أن تُقلعَ قبل فترة طويلة، لكن والدي لم يقوَ على القيام بهذا العمل من قبل. وفي الحقيقة لا يستطيع القيام بذاك العمل حالياً أيضاً، إلا أن يوحنّا أحبّ أن يخرج معه، فقاما بإنجازه سويّةً. كنتُ واقفة في الحديقة التي أمام البيت أقتلع الأعشاب الضارة حين جرى الحدث. سمعتُ في الأول يوحنّا يصرخ بطريقة هستيرية، لم يكن يبدو أنه كان مصاباً، بل كان سعيداً، لهذا لم أهرع إليه. بدلاً عن ذلك، عدّلت ظهري واقتربت شيئاً ما منه. وقفت عند زاوية المبنى أرنو إليهما وهما واقفان على بعد عدة أمتار من المبنى.

*

يصرخ يوحنّا: «انظر، جدّي! انظر!».

يبدو كأنه يحمل كرة قدم بنية.

«انظر جدّي، يا لها من بطاطا!».

ينهض أبي متعباً. يخطو عدة خطوات ثقيلة فوق الأوراق والقش المتجلد تجاه يوحنّا.

يسأل: «أهذه حقاً بطاطا؟».

يصرخ يوحنّا: « نعم، انظر كم هي ضخمة!».

يمد أبي يده المرتعشة، فيناوله يوحنّا حبّة البطاطا. يحس بها صغيرة في يده، وبعد أن يزيل عنها الطين اللاصق بها بحذر يظهر حجمها الكبير غير العادي ككرة اليد. لها لون خفيف مائل إلى الأخضر. يتوقفان برهةً يحدقان في حبّة البطاطا بتبجيل.

يقول أبي: «لا بدّ من وجود خطأ في النبتة، إذ لا تبدو البطاطا بهذا الشكل».

صوت يوحنّا يظهر التأثر والإعجاب، إلا أنني أرى الخيبة ارتسمت على وجهه.

يسأل: «أليست هذه بطاطا؟».

يجيب أبي: «بلى، إنها بطاطا حقاً، إنّها أكبر بطاطا رأيتها في حياتي طوال اثنين وسبعين عاماً. بالمقابل ثمة شيء غريب جرى مع هذه النبتة».

يحكّ رأسه بيده المتربة، فتبقى عليه بقعة.

«أهناك المزيد من البطاطا؟».

يومئ يوحنّا برأسه، فينحني ويحفر بيديه إلى أن يكتشف حبة بطاطس أخرى، حجمها كبير بشكل غير عاديٍّ أيضاً، لكنها ليست بحجم الأولى، عندما نفض الجدّ عنها التراب، أمكن رؤية نفس المظللات الخضراء غير المألوفة عليها.

« عجيب». قال الجدّ. «حبّات البطاطا المدفونة قريباً من سطح التربة، تكون لها بقع خضراء، لكن ليس هكذا».

يغرز أظافره في حبة البطاطا الأصغر محاولاً

تقسيمها بنفس الطريقة التي يقسّم بها الخبز اليوناني، ألا أنه لم يوفق. تنغزر الأظافر، إلا أنها لا تتشقق.

ولا يمكن تقسيم بطاطا عادية بهذه الطريقة.

يتنفس الصعداء.

يقول لاهثاً: «هل يمكن أن تسرع إلى الكراج وتجلب (سكّينة مورا)، أريد أن أرى كيف تكون هذه من الداخل».

يمضي يوحنا بسرعة في الطريق، يركض ويمرّ أمامي دون أن يلمحني. لا يشركني معهما. ولا يتصور أن أكون مهتمة بتلك الحبات غير المألوفة من البطاطا. إنه هكذا. إنها مغامرة خاصة به وبجدّه، ولا وجود لشيء آخر سواه والجدّ وبطاطاتهما الكبيرة الخضراء.

بعد برهة قصيرة يعود. يمدّ لأبي السكينة من نصلها الحادّ، لا من قبضتها كما تعلّم. كان يركض في الطريق والسكينة بيده مجرّدة، وقد وبخته مئة مرة على هذا التصرف حين كان أصغر سناً. كأن كل ما تعلمه ذهب هدراً.

يمسك أبي السكينة، يقلّبها ويقطع البطاطا الصغرى بروعٍ. ليس هذا خبزاً، إنه الآن بلح البحر عليه أن يفتحه. لكنه لا يغرز عميقاً بما يكفي هذه المرة أيضاً. يسحب السكّينة ويغرزها ثانية، لكنه يفشل في مسعاه. لا يمكنه أن يقرر إن كان هو الذي غدا ضعيفاً أم أن حبّة البطاطا قاسية للغاية.

يقول لاهثاً ليوحنا محدّقاً في جدّه بلا مبالاة: «يا لها

من وغدة قاسية!».

«أتريد أن تحاول؟» يمد أبي إليه البطاطا والسكينة.

يأخذهما يوحنّا بعناية، فاغراً فاه.

أستخدم هذه الكلمة ثانيةً؟ العناية. فإنّها أفضل كلمة مناسبة. ينظر يوحنّا إلى البطاطا والسكّينة، وكأنّ أبي قلّده وسام شرف عظيم، مثله مثل الصندوق الذي دشّن صداقتهما قبل ست سنوات.

لا يرى يوحنّا أن قدرات أبي انتهت نهائياً، لماذا حصل على هذه المكافأة؟ لا يتصور أن قلب أبي سيتوقف قريباً لأنه لم يعد يتحمل المزيد.

كيف له أن يتصور هذا؟ إذ لا يمكنني أن أتصور ذاك قبل الأوان.

يمسك يوحنّا حبة البطاطا بيد ويرفع السكّينة، لكنّني الآن لا يمكنني الوقوف جانباً. أهرع إليهما، أصرخ:

«مهلاً!».

يعجز يوحنّا على التحكم بحركاته بشكل تام، إذ يمكن أن يغرز السكّينة في بطنه أو يده مثلما يغرزها في البطاطا. كلاهما ينظر إليّ حين أجيء، يوحنّا رافعاً السكينة، وأبي واقفاً إلى جانبه محدودباً. يبدوان كشخصيتين في الفيلم الكارتوني. تيمون وبومبا. لير ولونجهالم. شيء من هذا القبيل. تلك الدمى السلوفاكية التي تقوم ببناء أشياء في برنامج الأطفال بوليبومبا.

مرة أخرى أقول: «مهلاً»، ضع حبّة البطاطا على

الأرض يا يوحنّا قبل أن تغرس السكين. كي تكتسب المزيد من الطاقة».

يفشل حينذاك، فيطعن في التربة.

ينظر يوحنّا متسائلاً إلى أبي الذي يومئ رأسه.

يفعل مثلما يقول له جدّه.

*

لم يكن أبي منْ فقد طاقته، إنما البطاطا هي التي كانت قاسية. تكاد تكون مثل الخشب. يحاول يوحنّا عدة مرات، يعرق قبل أن يقطع جزءاً منها.

ثمة أخاديد في البطاطا، تشبة الأنسجة.

يقول أبي: «إنها كإبليس».

تحولات لونية صفراء وخضراء، تشبه حلقات عمر الشجرة.

يسأل يوحنّا: «لماذا تبدو بهذا الشكل؟».

أقول: «لا بدّ من أنها قد تحوّلت».

«ما هذا؟».

أنظر إلى أبي الذي لا يردّ، ولا يعرف عما أتكلم.

*

كيف يمكن توضيح الجينات والعوامل الوراثية لأحد مثل يوحنّا؟

أخذتُ أوضح: «إن كل النباتات والحيوانات مبنية وفق نموذج، مثل الرسوم في لعبة الليغو. أو... مثل قوالب كعك القرفة».

قوالب كعكة الزنجبيل أحسن.

كل البشر مصبوبون في نفس قوالب كعكة القرفة، وصُنعت البطاطا في قوالب كعك قرفة أخرى». وأستمر: «إلا أنه أحياناً يُصادف أن إنساناً أو حبّة بطاطس لهما نموذج مختلف، فلا يتلاءمان في القوالب المألوفة».

أرى هذا التشبيه غير مناسب. لماذا عليّ إقحام الإنسان في هذا الموضوع؟ على الرغم من ذلك أحاول أن أواصل التوضيح.

أقول: «خذ على سبيل المثال، (بِنّي) الذي يداوم في نفس المرحلة الدراسية التي أنت فيها في شيليفتيو، تتذكر جيداً أنه كان يعاني من متلازمة داون؟ إنه مصنوع وفق نموذج مختلف عن نموذجنا. لكنه يساوي تماماً نموذجه في القيمة».

أبلع ريقي بينما ينظر يوحنّا إليّ غير مدرك.

وأنهي توضيحي بقولي: «نفس الشيء يصح على هذه البطاطا، مثلما يصح على بِنّي».

يفكر يوحنّا مليّاً.

- «هاتان البطاطتان مونجو؟» يقول ويحمل البطاطا الكبرى. لا يجعل من نفسه مهرجاً، بل يوجه إليّ سؤالاً حقيقياً.

«لا يسمى هذا بمونجو» أقول بحماقة كأننا نتكلم عن أنفسنا، لا عن هذه الظاهرة. «ولا يبدو هذا لطيفاً. هذه يسمونها متلازمة داون، هل تتذكر جيداً؟».

يومئ يوحنّا برأسه، ويلتفت بعد ذلك إلى أبي.

«ماذا يكون السبب برأيك؟».

يبدو التعب على أبي بوضوح.

يقول: «إنه بالضبط مثلما وضحته أمك».

لا يقوى على أن يفهم ماذا يريد يوحنّا. «لقد حوّلوا قالبهم، أو لكانت البطاطتان بشكل مختلف».

لا يستسلم يوحنّا.

يتسائل: «ألا يمكن أن يكون شيئاً آخر؟ ربّما قام كائن صغير بعمل استثنائي، أو ما شابه؟».

ينظر مندهشاً إلى جدّه متأملاً منه أن يحكي له شيئاً. لكن جدّه لا يقوى على ذلك. إنها ربّما أول مرة لا يستطيع أن يروي شيئاً، لهذا وضع يده على كتف يوحنّا.

- «عليّ أن أذهب إلى البيت وأستريح، إن ما تقوله أمك عمّا جرى للبطاطتين صحيح تماماً».

وأخذ يخطو في طريقه إلى البيت.

يظل يوحنّا في المكان لا يعرف بماذا يشعر.

*

سألني: «ماذا سنفعل بالبطاطا؟» نظر إلى البطاطا الكبرى: «أيمكن أكلها؟».

أقول له: «لا أعتقد».

ينظر إليها ثانية محبطاً، ويؤكد: «إذاً، إنهما لا يتساويان في القيمة».

ربّما يتكلم عن البطاطا فحسب، لكنني لا أجرؤ على المجازفة على قول إنه يتكلم عن الموضوع الذي تناولته.

أقول له: «بلى، طبعاً».

ينظر إليّ.

«لا، فقد خُلقت البطاطتان لتزرعا ومن ثم يتم نبشهما خارج التربة لتؤكلا. إن لم تؤكلا، يعني أنهما لا تساويان قيمة كبيرة».

أقول ثانية: «بلى». أبحث عن شيء أقوله.

«بلا شك، إنهما لكذلك. مثلاً، إن تلك البطاطا هي أكبر بطاطا أراها. إنها أكبر حبة بطاطا يراها الجدّ في حياته. وقد رأى العديد من البطاطا خلال عمره!».

يبتسم قليلاً ثانية.

يقول: «إن هذه كبيرة جداً».

قليلون مثلك والجدّ قد زرعوا بطاطا كبيرة بهذا الحجم وأسرع لكي أملأ الفراغ في كلامي.

يقول: «أتساءل كم وزنها؟».

- «الجدّ عنده ميزان في البيت، يمكننا الذهاب ونرى كم تزن. ويمكننا كذلك أن نلتقط لها صورة ونبعثها إلى الجريدة. الجدّ يملك كاميرا غاية في الجمال».

* «إلى الجريدة؟»

- «نعم، فيها صفحة خاصة بالأمور غير المألوفة.لم يسبق لأحد غيرنا أن عثر على مثل هذه الحبّة من

البطاطا. تعال نذهب لأريك ما على المرء فعله للتصوير. تعلمُ، إنهم يستخدمون علبة كبريت».

نبدأ بالمشي. لسبب ما، يمسك بيدي في الطريق. يداً بيد تسير الأم وابنها على القش والأوراق الساقطة في طريقهما لتصوير الاكتشاف المتميز الذي حققاه.

لا أتذكر متى كانت آخر مرة أمسك فيها بيدي. ربّما أمكن لي أن أستولي على هذا القرب الذي يكون محجوزاً للجدّ في الحالات العادية، لكنه الآن بالتحديد لا يستطيع استلامه. إيماءته الصغيرة تجعلني سعيدة. أشعر في داخلي بابتهاج أحاول عدم إظهاره، وإن ما يخيفني بشدّة هو أن أقل علامة تجعله يتحاشى الناس مرة أخرى.

أقول بدلاً عن ذلك: «كما ترى إنني على حق». أجرؤ على ضغط يده بخفة، لكي أظهر أنّ ما أقوله مهم. «أعني أن بطاطا عادية لا يجوز لك أن تظهرها في الجريدة».

«أجل» يقولها ويبتسم سعيداً.

أتصور أنني ربّما حققتُ تقدماً بالرغم من ذلك.

فجأة يقول: «أمي. ربّما يعملون الشيبس من هكذا بطاطا؟ إنها ذات أخاديد أصلاً!».

ينبغي أن أتكلم عن التصوير أيضاً، وإلا لن يفهم المرء، والخيط الذي أريد إظهاره سينقطع.

*

دخلنا البيت. كان أبي مستلقياً في غرفة النوم، فلم نسبب له أي إزعاج. غسلث البطاطتين، وضعتهما على منضدة المطبخ، وجلبت علبة كبريت وضعتها أمام البطاطتين.

«هذا العمل كان الغرض منه معرفة الحجم الحقيقي للبطاطا». أوضحث. «يجب وجود شيء لمقارنتهما به».

لم أجد الكاميرا. بحثنا كثيراً عنها حتى قام أخيراً يوحنّا ليسأل والدي.

بعد برهة خرجا من المطبخ، والكاميرا بيد والدي الذي بدا تعباً كما كان من قبل، إلا أنه لم يسلّم الكاميرا لنا. ودقّق لحظات في الترتيبات القائمة، ثم أزاح مملحة كانت موجودة في الخلفية وأشعل مصباح المنضدة، فانحنى لكي يصوّر.

قال يوحنّا فجأة: «جدّي! أيمكن أن تزيح علبة الكبريت؟».

نظرنا أنا وأبي إلى بعضنا. تدخلث لكي أساعد والدي.

قلث: «ألا تتذكر ما علّمتك إياه للتو؟ كيف سيمكنك معرفة حجم البطاطا؟».

«بلى». قال يوحنّا. «لكن علبة الكبريت موضوعة

أمام البطاطا. لكن لو وضعت مائلة خلفها لتراءت البطاطا أكبر».

نظر أبي إليّ، ثم إلى يوحنًا.

قال: «يمكنك قياس حجمها بعينيك». فتقدّم إلى الأمام ونقل علبة الكبريت من مكانها. وبعد ذلك تراجع إلى الوراء والتقط عدة صور قبل أن يعود إلى غرفة النوم والكاميرا بيده. لولا كونه متعباً لسمح ليوحنًا بأن يصوّر. فكر وحده في هذا، لأنه قبل أن يتوارى التفت إلى يوحنًا قائلاً:

- «عندما أموت سترث أنت هذه الكاميرا، يبدو أنك تملك عين مصوّر».

كان ذاك هو ما سمعت من أبي. أراه يخطو راجعاً إلى غرفة النوم بعد أن قال إن ابني المتوحّد أفضل مني في التقاط الصور، وكان هذا آخر ما فعله أمام عينيّ.

وكانت «نظرة مصوّر» هي كلمته الأخيرة.

مونا

العمر يمضي هنا. هذا هو كل ما لدينا.

هذا هو ما نفعله مع هذا الوقت القصير والثمين الذي نقوم بإدارته. ينصبّ كلّ شيء في حقيبة مرمية في غدير. في امرأة عجوز لم تعد موجودة.

نعم، لقد ماتت. ماتت.

في نفس اللحظة التي لفظت فيها أنفاسها الأخيرة، غدا مصيرها هو ما يحدد مصيرنا. ورثناه وسنورثه من بعدنا. لن يقوم يوحنّا أبداً بعمل آخر أكثر من هذا. لا يمكننا أن ننتظر منه شيئاً آخر.

*

غالباً ما أنظر إليه حين لا يلاحظ ذلك. وجهه مفتوح على سعته. ويمكنك أن تقرأ بالضبط مشاعره. لا يقوم بتخيّل نفسه. لا يستطيع ذلك. ولا يدرك أهمية عمره البالغ سبعة عشر عاماً. يجلس أمام التلفاز أو (سكوتر) مجلة دراجة الجليد النارية ويغرق في محتوياتها. يطالعها محاولاً أن يفهمها أيضاً.

وهو لا يخفي هذا.

كان هذا حين رجعنا إلى أبي بعد يومين من اكتشافهما البطاطا. هكذا كان على الدوام.

لماذا لا يستطيع أن يرى نفسه؟

الفصل العاشر

صور الموت

ليَنارت

كنت في الورشة حين خابرتني مونا.

كان واضحاً من خلال الهاتف أنها تبكي. إنها تتكلم كعادتها، لكن صوتها خالٍ من أي نبرات، مثل دمية بدون روح، تخرج أصواتاً معينة حين تضغط عليها. أو مثل علبة كولا عندما ترجّها. لا شيء مميز على السطح، فكل القلق تصدر عنه الفقاقيع من العمق.

* «أهلاً».

- «بابا مات»، كان أول ما قالت. قالته بشكل خاوٍ كأنّه لا يعنيها.

* قلتُ لها: «ماذا تقولين بحق الشيطان؟».

أعرف أنه لا ينبغي أن أشتم حين أتكلم مع مونا. لم تعد تتكلم عن هذا أبداً، إلا حين يكون يوحنّا معنا، لكنني أعلم أنها لا تحبّ كلاماً كهذا، فهو بات بالنسبة إليها كأنما أنادي على الشيطان لكي يأتي.

ولئلا يتعلّم يوحنّا مثل هذا الأسلوب من الكلام، تقول: «الحقيقة هي أن ما تفعله أنك تنادي على قوى الشر، تدعوها إلى المجيء».

قالت مرة ثانية: «بابا مات. وجدناه ممدداً على الأرض».

هكذا بكل سهولة.

قلتُ: «هل أنت متأكدة من أنه مات، ولم يغمَ عليه؟».

- «نعم، إنني متأكدة».

* «هل آتي، أم ماذا؟».

كان ينبغي أن أقول *«أنا آتٍ»*، لكنني كنتُ مضطراً إلى السؤال. لا تحبّ «ويستر» أن أطلب إجازة، هذا ما أقلقني حقاً.

- «أجل، تعال».

أخذت الآن تصفر، ما كان يعني ربّما أن الدموع أخذت تتدفق.

- «لا أقدر على تدبير الأمر. بابا.. إنه .. لا يزال مستلقياً على الأرضية. ويوحنّا..» سكتت لحظات. «أرجوك، تعال».

بعد فترة استراحة طويلة، سمعتُ يوحنّا يتكلم باضطراب من بعيد، لكنني لم أستطع تمييز ما يقول.

قالت مونا: «لم أعد أتحمَل المزيد».

قلتُ: «سأصل حالاً».

أنهينا الاتصال.

لم أقل إنني أحبّها. أردتُ أن أقولها، لكنني لم أفعلْ. كان سيسرّها أن تسمع تلك العبارة التي لم تخرج قط من فمي.

لا يستطيع المرء أحياناً أن يتفوّه بما يريد أن يقوله.

مونا

أرى ليئارت راكباً دراجته الهوائية في الطريق الريفي.

ثمة غابات على الجانبين. يلبس بذلة عمله الزرقاء. يتصبب عرقاً من جبينه لأنه يقود دراجته بسرعة.

من الصعب قراءة وجهه.

لينَارت

تتصوَر مونا أن في الموت الراحة والسلام. إنه بوابة الدخول إلى عالم أفضل. هكذا تم وصفه في أحد الكتب، وقد أعجبتها الفكرة، يغمض المرء عينيه، يخطو خطوة، فينتقل إلى الجانب الآخر.

ويحق لمن يندم على الموت أن يعود إلى الحياة، لكن لا أحد يندم هناك لأن المسيح يقف في طريق من ذهب ويستقبل القادمين.

هكذا ترى مونا الموتَ.

ربّما هكذا يكون الموت لقسم من الناس. لكن ليس لفالتر. لا بدَ من وجود عيب ما في نظرة المسيح، مثل من يقاوم سمكاً نهريّاً صغيراً كان قد بلع خطافاً. هكذا شخص يقفز بشكل وحشي في الزورق بحيث يخيف يوحنا.

*

حين وصلت إلى بيت فالتر كانت سيارة الأمازون واقفة عند المحل. دخلتُ مباشرة عبر الردهة إلى المطبخ، ولكن لم أجد فيه مونا ويوحنّا. كان مصباح المطبخ مضيئاً، وثمة كوب قهوة وصحن في حوض المغسلة غير مغسولين، كان الصمت يسود على البيت كأنه لم يكن هناك أحد. ذهبت باتجاه غرفة النوم. وفي الطريق توقفت كي أغسل الصحن فاختفت البقعة البنية اليابسة على حافته.

كان فالتر ينتمي إلى المدرسة القديمة في شرب القهوة، التي وفقها كان يصبّ القهوة في الصحن ثم يجعلها ترشح إلى حلقه خلال قطعة سكر. في الفترة الأخيرة كانت يده ترجف كأنه مصاب بالباركنسون، لكنها لم تكن ترتعش أبداً حين يقرّب الصحن من فمه.

حين دخلت غرفة النوم، لم أجد أثراً لشيء. كان فالتر مستلقياً على الأرض تحت سريره، عارياً سوى من الملابس الداخلية التي كان عمرها مساوياً لعمر يوحنا، مستلقياً على بطنه، لكن جذعه كان ملتوياً بشكل غريب جعل وضعية رأسه خاطئة بشكل ما. بجانبه ملاءة مهترئة واقعة مع الغطاء بشكل فوضوي على الأرض، كعلامة على أن حشرجة الموت دامت فترة طويلة. كان لا يزال ممسكاً بالغطاء بإحدى يديه. وحتى الأشياء الموجودة على الكومودينو كانت مُبعثَرة على الأرض. وقد تكسرت كأس وانتثرت شظاياها على الأرض.

كانت فكرتي الأولية أن لصاً قد قتله حين تفاجأ بوجوده في البيت، لكن لا أحد من موظفي المستشفى قال شيئاً من هذا القبيل حين وصلوا بعد برهة. ولم تسترعِ الفوضى السائدة في البيت انتباههم، ربّما لأن هذه هي الحالة العادية عندما يموت الناس وحيدين. بوابة مملكة الموت نادراً ما تكون مفتوحة على وسعها كما تعتقد مونا.

*

تجلس مونا على كرسيٍّ في الركن، غائبة عن الوعي

إلى درجة أنها لم تلحظ دخولي إلى الغرفة. تحركت شفتاها، لكن لم أتمكن من سماع ما قالت. بينما يوحنّا يتراكض هنا وهناك في البيت، يصوّر الفوضى بكاميرا فالتر، فالتقط صوراً غير واضحة لتفاصيل مشاهد الموت.

لحظة وصولي، كان جالساً في وضع القرفصاء ويضبط المسافة لتصوير أذن فالتر. مفتوناً برؤية الشعر النامي في الأذن عند الكبار. كان مشدوداً نفسياً ومتهيجاً، وازدادت سعادته حين وقعت عينه عليّ.

صاح بي: «بابا، ماذا تفعل هنا؟ انظر على ماذا حصلتُ!».

رفع عالياً الكاميرا. «الجدّ مات، فحصلت على هذه!».

لا يفهم. غالباً لا يفهم أبداً.

*

أخجل من قول إنني أردت للحظة أن أتقدم إليه وأضربه. أن أضربه على فمه، ضربة ربّما تكون كفيلة لإفهامه كيف ينبغي عليه أن يتصرف ويسلك السلوك السليم. لكن لم تلبث نوبة الغضب التي انتابتني بسرعة، أن اختفت بنفس السرعة. وهذا ما يحدث دائماً مع يوحنّا. من بعدها جاء القنوط الذي يدوم لفترة أطول.

*

كان ينبغي أن أقول له إن ما فعله هو خطأ. أن

أمسك به، ليس بقوة، بل بحزم، وأجلسه على السرير وأوضَح له ما يجوز وما لا يجوز فعله بالكاميرا. أن أوضَح له إلى أن يفهم. بدلاً من كل ذلك تقدمت منه وانتزعتها من يديه دون أن أقول له أية كلمة. ارتبك ورأى في وجهي أنه فعل شيئاً لم يكن ينبغي له أن يفعله، فلم يبدِ أيّ احتجاج. لا يحتج أبداً حين أقول له، لكنه لم يفهم أيّ خطأ قد ارتكب.

بقي جالساً على الأرض إلى جانب فالتر وتابعني بنظراته حين استدرتُ نحو مونا وطوقتها بذراعيّ. استمرت في البكاء بصمت، محرِّكةً شفتيها. حسبتها تغنّي.

يوحنّا

حين يموت أحد ما ستحزن، هكذا يقولون. وهذا ما يجب أن تتعلّمه. ومن المحزن أن الشخص الميت لن يعود أبداً. يمكن أن نلتقيه في السماء ثانية، لكن بعد فترة زمنية طويلة تختفي فيها دواعي الفرح باللقاء الموعود.

جلست أمّي لوقت طويل في الليل وحكت لنا ما جرى. قالت إنها وأبي كانا حزينين جدّاً، وإنه ينبغي عليَّ أيضاً أن أحزن، لأن الجدّ كان أفضل صديق لي.

كانت أمي تبكي طوال الوقت، لكن أبي على عكسها لم يبكِ، على الرغم من أنني أعتقد أنه حزين حقاً.

حين أشعر بقوة في نفسي، أستخدم الحاسوب وأستعرض الصور التي التقطها يوحنّا لأبي. قلت لليئارت إنني قد حذفتها، لكنن قمت بتغيير مكانها فقط. لا يستخدم ليئارت الحاسوب أبداً، لذلك لن يلاحظ شيئاً. ولا يوحنّا سوف يعثر عليها.

يتمنّى ليئارت لو لم تُلتقط تلك الصور. وفي حال حُذفت، أن يتظاهر المرء بأنها لم تكن موجودة، ولا يهتم بها، وهذا ما يدور في ذهنه.

لكنني لا أستطيع أن أحذفها، فهي موجودة في كل الأحوال، بغضّ النظر عمّا يفعله المرء بها. إذا لم أحتفظ بها، ستنمو في رأسي.

هذا على الأغلب لحماية نفسي في حال أراد ليئارت إزالتها، لأنها من ناحية كانت سبباً لكي يخجل من ابنه، ومن ناحية أخرى، وهو السبب الرئيس، لكي لا أراها وأتعلق بها.

لهذا أكذب عليه بدلاً من أن أجادله. فلو كان الأمر يخصّه، لتجاهله وابتلعه. إنه لا ينتصر لنفسه على حساب الآخرين. ولكن لو كان الأمر متعلقاً بمصالحي لما ساوم، حتى لو وقف ضدي.

إنه في الواقع على حق، فلم يكن ينبغي أن أنظر إلى الصور، فالصور الفوتوغرافية غالباً ما تقول شيئاً غير ما تقوله الذاكرة، لكي تهيمن عقب ذلك وتمسي هي

الذاكرة.

إن الدماغ يريد أن يوضب ويفرز الانطباعات من أجل أن تتلاءم، وحينها لا يستطيع سوى أن يخضع للصور الفوتوغرافية التي لا تقبل التغيّر. الصور الفوتوغرافية غالباً ما تكون فيها أخطاء، لأنها تظهر فقط جزءاً من الثانية جامداً من شيء أكبر، شيء غير قادرة على تقييمه، إلا أنها هي أقرب ما يمكن الوصول إليه.

*

الصور غير واضحة، إذ كانت الكاميرا مضبوطة على وضعية التصوير المقرّب منذ قام أبي بتصوير البطاطا. الصور التي التقطها يوحنّا لوجه أبي واضحة بعض الشيء. ويمكن فرز الصور الأخرى تقريباً هكذا.

إنها تشبه مشاهد جريمة عنف صُوِّرت مشوشة لكي لا تثير الفضول كثيراً. تظهر الصور أبي وهو يقاوم قوة متفوقة، شيئاً مباغتاً، ثم يُترك لسبيله لأنه غير جدير بأخذه معهم.

الصور التي التقطت لوجهه تظهر طرف لسانه وهو يبرز بين شفتيه. لا أدري ماذا يعني هذا، لكنني أعرف أنّ كلّ شيء يعني شيئاً ما، أليس كذلك؟

يمكن مشاهدة بقع دم صغيرة على جسمه. ولا أدري من أين جاءت تلك البقع، إذ إن الصور لا تكشف عن أي جرح. من المحتمل أن شظايا الكأس المتكسرة الموضوعة على الكومودينو قد جرحته. قطرات صغيرة تطايرت حوله حين قام بتحريك يديه.

*

التقط يوحنا 118 صورة في غرفة النوم، ما يساوي خمس لفافات فيلم من الطراز العتيق. عالج أكثرها بالحامض في الغرفة. 76 صورة من الصور لجسد أبي الأبيض. حسبت في ذهني أنه التقط كل عشر ثوانٍ صورة إلى أن توقف عندما وصل ليئارت وأخذ الكاميرا منه. لكن لا بدّ من أن ليئارت وضعها في الأسفل لأن يوحنا قام بالتقاط صورتين أخريين.

الصورة الأولى تظهر الممرضين وهم يقومون بتغطية أبي بغطاء على نقالة. أحدهم يضع يده على كتف أبي. ربّما كان يقوم بتعديل الغطاء، لكنه يبدو كأنه يحتضن الرجل الميت. يمشون مرفوعي الرؤوس كأنهم يتباهون بما يقومون به.

الصورة الأخرى هي لي وليئارت، التقطت احتمالاً بعد بضع ثوانٍ. يقوم ليئارت باحتضاني، مواسياً إياي. يقف وظهره للكاميرا. يبدو كبيراً، قويّاً، بينما أنا أبدو صغيرة.

أحبّ هاتين الصورتين أكثر من الأخريات.

*

الصورة الأخيرة في المصنّف التقطتها بنفسي. إنها مختلفة تماماً، لكنها موجودة في محلها المناسب بين الصور الأخرى.

التقطتها في اليوم التالي لوفاة أبي. نعود إلى حقله. يقف ليئارت ويوحنا في أرض البطاطا وكل منهما معه حفار البطاطا.

الصورة ملتقطة عبر نافذة المطبخ. لقد اكتشفاني فأخذا ينظران إلى الكاميرا. قمت بتركيز العدسة لتقريب الصورة بحيث يبدوان كأنهما يقفان بالضبط أمامي. لا تبدو على وجهيهما لا السعادة ولا الحزن، لكن يوحنّا يبتسم قليلاً. يبدوان تعبين، مغبرين نوعاً ما، ويعكس وجه يوحنّا تباهياً ضئيلاً. وهذا هو كل شيء. وليس هذا تقييماً لما يفعلان.

ليئارت هو الذي ألحّ على العودة.

«كان ينبغي استخراج البطاطا قبل عدة أسابيع» قال. «لا تدع أبداً الأشياء تموت».

أراد أن يذهب وحده، لكن يوحنّا أراد أن يرافقه، ويبحث عن المزيد من حبّات البطاطا الهائلة. وفي النهاية استسلمتْ. كانت تبدو عليهما الراحة عندما ركبنا السيارة للذهاب إلى هناك.

وكرر ليئارت: «لا تدع أبداً الأشياء تموت».

*

تظهر الصورة الفوتوغرافية كذلك كيف يقوم ليئارت ويوحنّا بإخراج البطاطا في حقل أبي، بعد يوم من وفاته. وجدا مزيداً من البطاطا الخضراء والغريبة، لكنهما لم يجدا حبَة بكبر التي جلبها يوحنّا إلى البيت.

كنتُ واقفة عند نافذة المطبخ، أتأمّلهما طوال الوقت تقريباً. لم أقدر على عمل شيء آخر.

مونا

تعبر السيارة على الطريق بأسرع ما يمكن. كيلومتر تلو كيلومتر. نغيّر مادونا بويست لايف، فجيل يونسون، ثم سيلين ديون. موسيقى بدون روح، وخاطئة.

لا جف بيكلي أو كنت، لا «هاليلويا» أو «يهب الريح على القمر».

الكلّ صامت في السيارة الفضية. يحمل يوحنّا صندوقه في حضنه وينظر عبر النافذة إلى الخارج. يبدو عليه الهدوء، على عكس ما هو عليه حين يعذبه الضمير. وهل يعرف ما هو الضمير، سوى ما وصفته له؟

لا تتغير المناظر الطبيعية الواقعة بين بوليدن وشيليفتيو كثيراً. صفوف غابات الصنوبر وتحريج الغابات يحل بعضها محل بعض كما في رموز مورس. يبدو المنظر نفسه، ربيع إلى الخريف. يبدأ الشتاء الآن في نوفمبر بطرح الكتل البيضاء، حيث يلاحظ المرء أن الوقت يسير على الرغم من كل شيء.

السياج الطبيعي يجعل كل شيء مثل لفافة فيلم يدور في حافة الخندق. كأن الله يصوّر لنا الفيلم لكي نستطيع أن نروي فيما بعد ماذا كان ينبغي أن نتعلّم من الحياة. ذهب يوحنّا في هذا الطريق مئات المرات. منذ كان صغيراً وكنا نقود السيارة الأمازون إلى شيليفتيو للتسوق، واشترى كالعادة مجلة سكوتر وأصابع عرق السوس من أسواق دوموس. واستمر على هذا الحال حتى عندما كبر وصار يتجول في الأسواق، كان قد

اشترى مجلة سكوتر وكيساً من أصابع السوس حين التقينا بعد ساعة.

غالباً ما كان يذهب إلى هذه المناطق البعيدة راكباً الحافلة. وتبدو عليه الراحة حين يحمل معه شيئاً ما.

*

تجاوزنا الآن مستنقع البضائع، المنطقة الوحيدة على الطريق والتي نرى فيها شيئاً من الجمال. إنها بحيرة كبيرة منهكة. وبعدها أمامنا ميل من غابة الصنوبر علينا المرور بها قبل أن نصل قمة الغابة التي تم تحريجها، والتي يمكن خلالها رؤية مصابيح شيليفتيو مضيئة في الليل.

يجعل المرء لنفسه نقاط علّام أساسية في الطرق التي يعرفها جيداً. تقاطع سفانستروم، مستنقع البضائع وقمة الغابة المحرّجة. نقوم بتقسيط المسافة لكي نشعر بأن الوقت أقصر مما هو في الواقع، على الرغم من أن النقاط الأساسية تغدو اليوم مجرد مخاطر، لأنني لا أريد الوصول.

*

يجب أن لا يأبه المرء لما يقوله الناس، إلا أنه يأبه لذلك. أنظر إلى السياج الطبيعي وهو يلف في داخلي الفيلم القادم. الفيلم الذي سيرويه البشر حين يعود الرجال بسياراتهم الفضية لكي يعرفوا أين ذنبهم.

سيقول الناس: «ليس غريباً أن يوحنّا هو مثلما هو عليه، ولو كنتم حاضرين مع والديه مراسم الدفن،

لفهمتم».

هم دوماً على حق. فلم تفعل المدرسة شيئاً أكثر من أن تترك مشكلة لا يمكن التحكم بها باتجاه اعتقدوا أنه الصحيح، لكن ما الذي فعلناه نحن؟

ربّما لم يكن كل ما فعلناه كافياً؟

حقاً، لم يكن كافياً.

*

يشكّل الفيلم جزءاً من مرافعتي عن يوحنّا. ثمة علامات عديدة تعلن براءته بصمت عند الحاكم الذي لا يسمع ولا يرى.

وبالرغم من كل ذلك، يبرز السؤال مرة أخرى: كيف لهم هذا؟

لا يبدأ الفيلم بالطبع في الكنيسة حيث لا يمكنهم مشاهدته، بل في الطريق المؤدي إليها.

الفصل الحادي عشر

الثعلب

تسود الزرقة في الخارج. تسير سيارة أمازون قديمة على طريق زراعية مقفرة. سيارة بهت طلاؤها وامتلأ ببقع الزنجار. أحد الأضواء الأمامية فقط يعمل. الكسوة الداخلية للسيارة مهترئة، شجرة تنوب معطرة معلَقة بالمرآة الخلفية من وسطها ولوحة القيادة ممتلئة بالعملات المعدنية، ورزمات المناديل ورقائق الحلوى. زجاجة بلاستيكية مليئة بالماء تتحرك إلى الأمام والخلف على قعر السيارة أثناء أية استدارة.

أجلس وبين يدي كتاب أناشيد دينية، يقود ليئارت، ويجلس يوحنًا وسط المقعد الخلفي. يوازن الكاميرا بين يديه. كلنا بأفضل هندام، في طريقنا إلى دفن أبي.

أسأل ليئارت وهو يعدّل المدفأة: «هل يجب أن تقود السيارة بسرعة كبيرة جداً؟».

لا يسمع. «اللعنة، أية لعنة كانت» يقول مع نفسه: «ستهلكنا تماماً».

* «لا تغضب عليها، ليست هذه كل الدنيا. و تعرف طبعاً أن حد السرعة الأقصى هنا هو 70؟».

يستمر في تعديل المدفأة.

- «نعم، صحيح إنني أقود بسرعة 70 ..».

* «من فضلك، ليئارت، هدّئ من روعك. نحن في طريقنا إلى دفن أبي. وأنت تقود بسرعة 90 تقريباً....».

يرفع ليئارت رأسه.

- «أنا أقود بسرعة 70. وقد قدتُ بسرعة 85 لأنك دخلتِ الحمّام قبل ساعة من الموعد المزمع لمغادرتنا. لا أفهم لماذا يلزمك كل هذا الوقت...».

* «عزيزي ليئّارت... هل ينبغي عليك... نحن في الواقع ذاهبون إلى دفن أبي».

أقولها ثانية، لكن بدون جدوى.

يقول: «بالضبط. ونحن الآن متأخرون».

يخفف السرعة مثل طفل متجهم.

- «انظري، نقود الآن بسرعة 70».

* «سوف نصل في الموعد...».

أغلب الأوقات نتشاجر ويصدر منا كلام قاسٍ نوعاً ما، وبالرغم من ذلك... إنها أشياء معتادة. عبارات أعدتُ قولها مرات عديدة من قبل.

نتشاجر حين نكون مجهدين نفسياً أو قلقين بانتظار شيء ما. هذا ما نفعله أكثر من اللازم، ونتبادل الكلام دون أن نعنيه.

ينبغي ألا نفعل هذا، إلا أنه طريقة سهلة لإفراغ إحباطك في أقرب شخص حولك، وهو أقرب الناس إليك. طريقة سهلة لكنها خاطئة. خاطئة لأنك من السهل أن تنسى لماذا تتشاجر مع آخر. وخاطئة لأن ما تبدأ بقوله يبدو حقيقياً، و أين المفر إذاً؟

يرى ليئّارت أنني حزينة.

«كيف حالك؟» يقول لي. «ألا تشعرين بالبرد؟».

* «بلى، قليلاً. لكن الأمر ليس خطيراً».

يركّز مرة أخرى على المدفأة.

- «هذا هو حالنا دائماً. تعبنا. لو قطعنا الاهتمام به لحظة واحدة، لجاءتنا طعنة سكين من العليّ القدير الذي هو أقل ما يفكر فيه المرء».

يقول مثل هذه الأشياء وهو يعلم أنني لا أطيق شتائمه بحق الله. والآن لا أقدر على السماح بها أن تمر بسلام.

* «أيجب أن تلقي باللوم على الله؟ ماذا يفعل الله إن كانت مدفأة سيارتنا القديمة تتوقف عن العمل؟».

- «لأنه جاء الخريف وأصبحنا في حاجة إليه».

* «حسناً. لكنه تعطّل قبل أسبوع. ألا ترى بدلاً من ذلك، أن الله منحك فرصة أسبوع لتصليح صمام الهواء التالف؟».

أفعل هذا لأنه على خطأ. أندم مباشرة ، لكن الكلام قيل ولا يمكن سحبه. على الرغم من أن مهمته ليست صعبة.

- «ليس صمام الهواء، بل إن الحبل الفولاذي مقطوع». يقولها كأنّ هذا هو موضوع شجارنا الأساس.

* «ألا يمكنك لمرة واحدة فقط أن تشعر بالامتنان؟ اشكر الله لأنك بارع في تصليح السيارات وتستطيع أن تصلح هذا الحبل الفولاذي بنفسك، إن تفرغت له».

- «طبعاً، هناك أشياء كثيرة في هذا السيارة نحن شاكرون لوجودها. ونحصل هذه السنة على حبّات

بطاطس كبيرة مشوهة ، قاسية إلى حد لا يمكن أكلها، بدلاً من البطاطا المألوفة».

نأكل من بطاطا أبي كل ليلة تقريباً. البطاطا الظريفة التي جلبها ليئارت من الحقل وحفظها في القبو البارد الذي لا تصله أي دفء في منتصف الشتاء فتتجمد البطاطا. هذا ما نفعله كل عام.

- «ويجب أن لا ننسى أننا سنقوم بدفن أبيك اليوم».

أبتلع ريقي وأنظر إلى كتاب الأناشيد. أستسلم وأدع الأفكار تمضي إلى أمام، تبحث عن نفسها في الأناشيد. وعدتُ لسبب من الأسباب بالعزف في المراسم. لا أريد، لكنني وعدتُ لأنهم قالوا جميعاً إن أبي سوف يحبّ عزفي.

قالوا: «إن فالتر سوف يحبّ أن يسمعك وأنتِ تعزفين».

ولكن هنا في السيارة أرى أن أبي لن يكون هناك. سيحضر جسده الفارغ منه فحسب. لم يقم لمرة واحدة بزيارتي لسماع عزفي طوال السنوات العشر التي كنت فيها قائدة جوقة العازفين في الكنيسة قبل أن أنتقل للعمل في «الوردة» بلومّان. وإنني لا أحبّ هذا، ما يعني شيئاً ما بعينه تماماً. لكن بعد فوات الأوان.

أقول: «أنا متوترة قليلاً لأعزف في الكنيسة، فنادراً ما أعزف في الوقت الحاضر».

لا يفهم ليئارت مشاعري.

يقول: «كل شيء على ما يرام. أرأيتِ أقراصي

التريو؟ شربتُ صباحاً القليل من القهوة، لهذا أشعر بالقرع العنيف في الصدغين، يكاد يشبه طعنات سكين».

يشعر دائماً بالصداع حين يكون مجهداً نفسياً. ويكاد يكون مجهداً على الدوام. أنبش في علبة القفازات.

أقول: «أنا نادمة على على كوني سأعزف. مرت خمس سنوات على آخر مرة عزفت في الكنيسة».

أريده أن يفهم، لكن بدون جدوى.

- «من الواضح أنك ستعزفين، وإنك نادراً ما تقومين بذلك. وإن فالتر سيقدّر هذا».

يواجهني الجميع بهذا الجدال الذي لا أقدر أن أدافع فيه عن نفسي. فماذا تكون إرادتي مقابل إرادة رجل ميّت؟

أستمر في البحث عن الأدوية المسكّنة للألم.

- «كانت الأقراص هنا منذ فترة طويلة، وقد نسيتُ بالتأكيد أكثرها».

التفتُ.

* «يوحنّا، أرأيت تريو أبيك؟».

يهزّ يوحنّا رأسه.

- «حسناً فعلتِ حين أجريتِ بعض التمرينات أمس. الشيء اللعين الذي في أنبوب؟ أليس عندك، يا يوحنّا؟».

يعود يوحنّا يهزّ رأسه. إنه لا يقول شيئاً حين يتكلم

ليئارت أو أنا أتكلم، يكتفي بالاستماع فحسب.

- «إذاً، لا بدَ من أن تكوني أنت، مونا، أين وضعته؟ أنا متأكد من أنني جلبته معي».

* «هل بحثت في جيوبك؟»

- «بالطبع، بحثث في جيوبي، بالإضافة إلى....»

يبحث ليئارت في جيوبه ويجد أنبوب التريو. يكره أن يكون مخطئاً. لكنه لا يقرّ بخطئه.

- «ستهلكنا هذه الأمو...».

أناوله قنينة الماء البلاستيكية من قعر السيارة ويقوم بملء فمه بالماء ويفور القرص لحظة قبل أن يبتلعه. يلتفت إلى الوراء ويبقي نظره للأمام.

يوجّه سؤالاً إلى يوحنّا: «معك الكاميرا؟».

- «جاوب لكي نسمع».

* «أجل».

- «كما قلث لك، أن تكون معك أمر جيد، إنك ذكي في التقاط الصور. لكن تذكّر ماذا قلنا، لا صور للجدّ المستلقي في التابوت. لن يكون وقعها مستساغاً. حينذاك ستجد المعلمة ليندمان والآخرون مادة للحديث. لا تصوّر على الإطلاق في الكنيسة. يمكنك أن تصوّر فيما بعد أثناء احتساء القهوة. سأعتني أنا بها حتى ذلك الحين، فلا تنسَ».

يومئ يوحنّا رأسه.

صارت السرعة 70 مرة أخرى.

- «هل وضعتِ لفافة فيلم جديدة في الكاميرا؟»

* «لا أعلم».

- «بلى، تعلمين جيداً».

* «إنها كاميرا رقمية. فلا حاجة إلى لفافة فيلم».

- «حسناً، إذاً لا باع لي بهذه الموديلات الحديثة. كم فيلماً بقي للاستخدام؟»

* «لا أدري».

- «افحص الشاشة».

يبدو يوحنّا متسائلاً.

يستدير ليئارت ويشير إلى الكاميرا.

- «يمكن رؤيتها من فوق. كل الكاميرات هكذا».

* «لا تنسَ النظر إلى الطريق». أنبهه.

- «أستطيع أن أقود إلى الجحيم!» يهسهس ليئارت. ويستمر في الكلام متخذاً وضعية المحادث:

«ترين الكاميرا من جانبها العلوي...».

ندهس شيئاً ما. يقفز من أمام السيارة بالضبط أثناء قولي له أن ينتبه إلى الطريق. نسمع خبطة. وهذا ما يذكّرني مرة أخرى بمسرحية هزلية.

* «ما كان هذا؟» أقول.

- «أعتقد أننا دهسنا شيئاً».

ينتابني شعور (ليس الآن مرة أخرى). ولكننا في الواقع لم ندهس أي حيوان منذ انتقالنا إلى هنا، ولا أي طيرٍ، منذ تسعة عشر عاماً. نادراً ما نقود السيارة.

يرجع ليئارت إلى الوراء، ونقوم نحن بالنظر من خلال النوافذ.

- «كانت ثعلبة، يا أبي! إنها ترقد هناك! هناك في الخندق!».

إنها حمراء مشرقة. هذا اللون له من الشدة مثل أوراق الخريف تقريباً.

يوقف ليئارت السيارة ويفتح الباب. يبدو عليه الاكتئاب.

يقول: «سأذهب لأرى إن كانت مجروحة. انتظروا في السيارة».

أخرج أنا أيضاً من السيارة وأقول: «انتظر هنا، يوحنّا».

أقف عند غطاء المحرك بينما يتقدم ليئارت وينحني على الثعلبة. ويفحص في طريقه دعامة السيارة ليرى إن أصابها خدش أو انبعاج. يخرج يوحنّا من السيارة ويقف إلى جانبي.

يقول ليئارت: «إنها لا تزال حيّة، تتنفس في كل الأحوال، لكن إصابتها خطيرة».

* «لنتركها ونرى، عساها تستعيد وعيها». أقترح أنا.

- «لا، عندها كسور في الرجلين ولا بدّ من أنها مصابة بجروح داخلية. لقد كانت ضربة قوية».

يبدو ليئارت في موقف حرج. على الرغم من مرور الوقت يتذكر جيداً الدرس الذي تعلمه من المرة السابقة.

تبدو عليه الجدية.

- «يوحنّا، ادخل السيارة». يقول له.

يبدو عليه الحزم، ولكنه شارد الذهن. لا ينظر إلى عيني يوحنّا، لهذا يبقى يوحنّا واقفاً في مكانه.

يذهب ليئارت فوق الخندق إلى حافة الغابة. يعود بحجر كبير بالكاد تتسع له يداه. يضعه عند الثعلبة، يحاول أن يشمّر عن ساعدي سترته التي يشعر بأنها ضاقت فينزعها.

* «ليئارت.. ليس بالضرورة أن تفعل هذا»، أقول له: «يمكننا أن نخابر أحد الصيادين. يمكن أن نخابر (بيرجر). إنه بالتأكيد في الكنيسة وهو ينتظر. أعرف مدى حبّك لهذا العمل، ليس لدينا الوقت، علينا التواجد في الكنيسة بعد خمس دقائق في حال ما إذا نسيت هذا، ولا حاجة إلى أن تعاني الثعلبة لوقت أطول من اللازم. يجب حسمه الآن».

* « ليئارت...».

- «حسناً. سأقوم بذلك الآن».

أنظر إليه بشفقة فقد أتعبته سترته.

- «هل تحملينها عني؟».

يناولني إياها.

لا يتمكن من فعل ذلك وحده، فيرجوني أن أشاركه، وأساعده. أتقدم إلى الأمام وآخذها. يحمل ليئارت الحجر.

يرفعه ويضرب.

*

أنظر إلى ليئارت بينما هو يضرب. تتناثر بقع الدم على ياقتي وعلى وجه ليئارت. يضرب مرة بعد أخرى. مرات عديدة. يفضح نفسه خلال الضرب. إنه لا يستطيع التحكم بمشاعره مثلما هو يعتقد. يقتل مذعوراً القطة التي كانت تعاني قبل تسعة عشر عاماً.

أنظر إلى وجهه. ينظر بحذر قليل، يرفع مرة بعد أخرى الحجر فوق رأسه.

هكذا أنهى عمله.

شاهدنا كالخراف، نوعاً ما، ما قد فعله. و بعد ذلك أحوّل نظري. يتحسر ليئارت.

- «على أي حال لم تعد تعاني».

يفرك يديه الملطختين بالدم ببعضهما ليمسح الدم عنهما.

- «الآن تصل غربان العقعق لكي تتناول وجبة ضخمة».

أتساءل: «هل ينبغي تركها بهذا الشكل؟».

- «ماذا نفعل؟ لا وقت لدينا لأي شيء».

تقع عينا ليئارت على يوحنّا فيجفل.

- «يوحنّا، تعال هنا». يقول ليئارت.

ينحنيان عند الثعلبة المسحوقة. يحاول ليئارت تنظيف يديه الملطختين بالدم باستخدام العشب.

- «هكذا أنت تفهم، أنّ الثعلبة كانت جريحة. ملقاة هناك ولم تكن قادرة على الركض من هنا. كحال تلك القطة بالضبط حين التقينا أنا وأمك، أتتذكر؟ وحين تكون الحيوانات جريحة يجب أحياناً مساعدتها لإنهاء معاناتها بطريقة ما مهما كانت قاسية وبشعة. لقد قمت بهذا من أجل الثعلبة».

ينظر ليئارت إلى الغدير في الأسفل.

- «هل تفهم ما أحاول أن أقوله لك؟»

يومئ يوحنّا برأسه.

- «لا تحزن، فالثعلبة الآن في حال أفضل. أنا وأنت في الواقع أصدقاء الحيوان، أليس كذلك؟ يضطر الإنسان أحياناً إلى القيام بمثل هذه الأعمال لخير الحيوانات».

يتأمل يوحنّا الثعلبة المسحوقة. إنها لا تشبه القطة التي سمع عنها.

- «ينبغي أن نطلب منها العفو. على المرء دائماً طلب العفو». يقول، «ربّما لا تفهم الثعلبة لماذا فعلنا هذا».

ينظر ليئارت إليّ نظرة متوسلة. أتقدم منهما وأنحني أيضاً.

* «أنت تفهم، يا يوحنّا، إن الثعلبة لا تسمعك. إنها الآن ميتة».

ينظر يوحنّا إلى جثة الثعلبة بشك.

* «الثعلبة الآن في حال أفضل مما كانت عليه قبل أن يقتلها أبوك» أردف قائلة. «ليس ثمة شيء لنحزن

عليه. فموت الإنسان لا يعني نهايته، فهو يستمر في الحياة بطريقة أخرى. مثل الجدّ. هذا ما تكلمنا عنه من قبل».

يعاين يوحنّا الثعلبة مرة أخرى. أحس بثقل في داخلي. ثعلبة ميتة تثير مشاعر أكبر عند يوحنّا مما أثاره فيه موت جدّه، صديقه الأفضل. ثمة خطأ في هذا.

- «حسناً» يقول أخيراً.

نتهض ذاهبين إلى السيارة، ونسير هكذا في الطريق.

أقول: «يوحنّا... لا تقل لأحد ماذا فعل أبوك، حتى ولو كان ما عمله صحيحاً. فلن يفهم جميع الناس».

الفصل الثاني عشر

التشييع

كنيسة بيضاء. ديار صغيرة متشحة بالخريف. السماء معتمة ورمادية، لكنها لا تمطر. ثمة لافتة مكتوب عليها كوسمارك ولافتة مكتوب عليها كنيسة كوغه دالن. هَهُنا سوف يتم دفنه.

سيارة أمازون قديمة تأتي بسرعة كبيرة وتنعطف باتجاه مَزأب الكنيسة حيث صف من السيارات التي وقفت هناك من قبل، أكثرها مستعملة.

يركن ليئارت السيارة بجنب تويوتا ايفينسيس جديدة. يسبّ قليلاً وبهدوء حين يلاحظها، ثم ينظر مجهداً إلى ساعته.

*

القس واقف ينتظرنا عند بوابة الكنيسة. إنه لا يزال شاباً. لا يسعني إلا أن أقول إنه لا يزال في حاجة إلى خبرات أطول في عمله. لا يلائمه المعطف الذي يلبسه بصورة أنيقة تذكرني بطفلي حين دخل لحظات في خزانة الجد، ثم خرج منها بملابس واسعة لا تناسب حجمه.

يذكرني أن الولد سوف يقوم بتأبين الجدّ. تنتابني الآن هذه الفكرة، وأحاول تقبّلها.

أراه واقفاً وهو يفرك يديه طالباً الدفء، ويبتسم بتحدٍّ حين نصل مسرعين. بإمكاني منذ الآن سماع كلمته التي سيلقيها قبل أن يفتح فاه.

لم يكن يعرف أبي، إلا أنه قريباً سيثني عليه متأثراً ويكيل المديح لفالتر بأنه كان إنساناً خيّراً وطيباً، وأننا سعداء لأننا في يوم ما سنلتقي ثانية في الملكوت. سيستخدم نفس الكلمات التي استخدمتها لتوضيح الأمر ليوحنّا.

كنتُ أشعر حينها أنها حقيقية جداً، لهذا ظلت ملتصقة بذهني إلى الآن؟

«مرحباً، نعتذر عن تأخرنا». أقول حين نصل إلى مدرج الكنيسة.

يمسك ذراعي ويحتضنني بحنان.

يقول: «المهم أنكم وصلتم أخيراً».

ثمة أثر للشكوى في تعاطفه الذي يعبر عنه بصوته. فلا يقول: «ذلك لا يهمّ»، أو «لستم متأخرين أبداً». ويعانق ليئارت كذلك.

يتراجع إلى الوراء قليلاً.

*

نصعد إلى الكنيسة. نراها مكتظةً إلى حد ما، خاصة لو علمنا أنّ قلة من الناس كانوا يعرفون أبي. وبعضهم من متقاعدي لعبة البينغو. يصبح المرء بسهولة ممتلكات عامّة، على الرغم من أنه يقيم في الريف. يمرّ الأولاد غير مدعوين ليحتسوا القهوة من الأطباق ويتكلموا عن الشجارات والمظالم والجور بين ناس لا نعرفهم.

المطلوب أن يُحترم هكذا شخص لمرة أخيرة، على

الرغم من كونه غير معروف جيداً. رؤوس كثيرة تلتفت لتتابعنا بنظراتها ونحن نسير طوال ممر المذبح إلى الصف الأول. أرى أيضاً المعلمة ليندمان وزوجها لارس من بين الحاضرين، إلا أنني أتظاهر بأنني لا أراهم.

لا أحد يتكلم، يخيّم السكوت على المكان فيما عدا صوت حذائي الذي يطقطق أثناء اصطدام كعبه بالبلاط الحجري. يصدر حذائي الصوت طوال الطريق هكذا: كلوب-كلوب-كلوب.

نجلس. يتقدم القسّ إلى المذبح ويحيّينا بانحناءة من رأسه. يحني رأسه لي. أقف من جديد. لقد نسيتُ إن المراسم ستبدأ بنشيد. مرة أخرى ينظر الجميع إليّ وأنا أرجع عبر ممر المذبح تجاه مدرّج الأرغن. في صوت حذائي في هذه الكنيسة الهادئة ما يثير الضحك رغم المأتم. أشعر بذلك. يضفي حذائي شيئاً من الضحك والسخرية على مراسم تشييع أبي. سخرية لن تختفي طالما تتوفر لها الأجواء المناسبة. السخرية لا تقبل الاختباء. أصعد المدرّج. إنهم يسمعون طقطقة كعب حذائي حتى أصل إلى الأرغن. وما أن جلستُ حتى شرعت أجراس الكنيسة بالقرع. هذه هي أول مرة. لم يسبق القرع لتغطي الأجراس خطواتي. أبدأ العزف حين تتوقف الأجراس عن القرع.

*

يبدو هذا على ما يرام. ينتابني قلق واضطراب. أعزف أفضل من قائد الجوقة الحالي. وأجرؤ على

الاعتراف بهذا لنفسي، بأنني أفضل من جميع قائدي الجوقات الكنسية الذين سمعتهم إلى اليوم. هذا ما كان ينبغي عليّ في الواقع أن أفعله. أعرف هذا، أداعب النوتات لتظهر. هذا ما يجب على المرء عمله. هذا هو ما تعالجه كل أنواع الموسيقى: الحضور. في كل نوتة؛ في كل مقطع؛ روح يجب الكشف عنه. إن غنّيت (أن الريح تهبّ على القمر)، يجب أن تخبر الأغنية عما تقول في البداية. كثيرون لا يفهمون هذا. إنه صعب في أورغن الكنيسة، مثل صياح الظلال، لكنه يعمل.

لا أستمع إلى الراديو لأنه غالباً ما يكون بدون روح. إن وجود الروح في الموسيقى ضروري، خاصة حين يعزف المرء على أرغن الكنيسة. أظن أنه من الغريب أن الكنيسة قبلت بكل هذه الآلات عديمة الروح وامتلكتها. رغم أن صوت أرغن الكنيسة عظيم، والأهم والأثمن هو تذكير الناس بقدرة الله، أكثر من محبته.

أجلس هناك وأحاول أن أملئ النوتات بالروح.

موسيقى لله، ولوالدي المتوفّى. فرصة لا تتكرر.

*

أعزف النشيد الأول بدون أي خطأ، ثم أستمر في الجلوس عند الأرغن حين يشرع القسّ بالكلام. وفي الواقع كان عليّ أن أنزل، وأتقدم ثانية بطقطقة حذائي للمشاركة في المراسم. لكنني لا أفعل هذا. أستمر في الجلوس.

لا أستمع إلى ما يقوله القسّ. أجلس هناك، أنظر إلى

يديَ اللتين عزفتا قبل قليل فحسب. يدي اليمنى عليها قطرة دم يابسة، لم ألمحها قبل هذه اللحظة. مثل أبي بالضبط في الصور، قمت بمسح الدم بيديَ. دمه كان غير واضح، والآن أزيل تماماً. ولكن مع ذلك...

عندما أنظر، ألاحظ أن بدني كلّه ملطخ بدم ناشف. لم ألاحظه بسبب الإجهاد والتعازي، لكنني مغمسة تماماً في دم الثعلبة الأحمر.

أتصوّر كيف يبدو ليئارت. فجأة يزول حزني، أفرغ. فارغة تماماً. الشيء الوحيد الذي أفكر فيه هو الثعلبة المسحوقة وتلك الصور المشوشة، بالرغم من أنها لا تقول لي شيئاً. وهذه تختفي فيما بعد أيضاً.

*

ينتهي القس من كلمته الافتتاحية ويسكت. وحين يأتي موعد النشيد التالي، يسود صمت على منصة الأرغن، فيدير الحاضرون بهدوء رؤوسهم إلى الوراء، لكن لا نوتة تُسمع.

انهرت.

لينَارت

مونا في الحقيقة قوية للغاية. إنها تعرف قدراتها، وتعرف ما تؤمن به، ولا تتزحزح قيد أنملة عن إيمانها. هذه هي القوة. لكن هذا لا يفيدها بشيء. ما تفعله خاطئ. إنها تصبح كعلبة الكولا، كل قوتها مضغوطة بداخلها. هذا ما يجعلها ضعيفة.

كل الشجار والجولات حول يوحنّا يبقى في داخلها، يبقى هناك إلى أن تسقط إثر الضغط.

أنا أسمي هذا انهياراً، لأن هذا هو ما يحدث.

*

انهارت مونا مرات عديدة، ثلاث منها كانت انهيارات حقاً خطيرة. المسألة هي أنّه لا يحدث شيء متميز هذه الأيام. إنها تعاني أصلاً من ضغط سيؤدي بها إلى الانهيار حين يصل حده الأقصى.

حدث هذا لأول مرة قبل أربع سنوات، بعد مضي شهرين على دوام يوحنّا في المدرسة الجديدة في شيليفتيو. كانت في يوم عاديَ جالسة في السيارة على الطريق الفرعية خائرة القوى، عجزت عن القيادة للخروج إلى الطريق الرئيسة. سيطرت عليها «رؤيةٌ وجهتْها إلى أن لا شيء سوف يغدو أفضل». هكذا قالت فيما بعد.

«الآمال التي بنيناها لن تتحقق».

لم تكن تبكي حين أوصلتها إلى السرير. كانت مجرد

فارغة. مفرَّغة.

«ماذا على المرء أن يعمل حين يفقد كل الأمل؟» قالت. ولم أنجح قط في الحصول منها على توضيح ما قصدَته من سؤالها.

انهارت للمرة الثانية بعد سنتين من انهيارها الأول حين كان يوحنّا يداوم في الصف التاسع، حيث كان يذهب نيكلاس معه في الحافلة وعاد يوحنّا متعلماً منه الشيطنة من جديد. بعد مرور يومين على تكرار يوحنّا لواقعة اليرقة، وصلتُ البيتَ فوجدتها مرمية على الأرض في حجرة الغسيل المعتمة. كانت بويبة ماكنة الغسيل مفتوحة وإلى جانبها سلّة الغسيل، إذ إنها انهارت أثناء العمل. تعطلت عن أعمالها.

قالت: «ماذا بقي لنعمل الآن، فقد غسلتُ كل هذا من قبل؟».

المرة الثالثة كانت في الكنيسة.

*

لا أدري كم من الوقت قضينا جالسين على المقاعد في انتظار أن تبدأ العزف. انتظرنا أولاً أن تنتبه لإشارة الانطلاق من القس. أحياناً سيكون ثمة سوء فهم، إن لم يعرف القس وعازفة البيانو بعضهما. هذا ما قالته لي مونا.

توجد مرآة خلفية كبيرة إلى جانب كل أرغن، ليست من ملحقاته، لكنها موجودة هناك دائماً لكي يرى العازف إشارات القسّ الذي يقف وراءه. تلك المرايا منتزعة على

الأغلب من الشاحنات العسكرية. هذه هي الحقيقة. إنها إعانات من فولفو وسكانيا إلى بيوت الله.

كانت لترى القس وهو يلوّح بالإيعازات لو استطاعت أن ترى. لكنها لم تعد ترى.

«والآن سنغني النشيد رقم 297». حاول القس التغطية عندما شاهد مونا جالسة و تشوّشت عليها نوتاتها.

وهكذا خيّم علينا السكوت مرة أخرى.

في هذه الأثناء نهضتُ من مكاني. فهمتُ أوَلاً أن الحالة انتابتها ثانيةً. قلتُ ليوحنّا أن يبقى في مكانه على المقعد، ثم قمتُ بالذهاب إلى الخلف عبر ممر المذبح. نظرت أمامي مباشرة، فلم أتلقَّ أيّة نظرة. والآن بعد كل ما جرى، أتساءل إن كانوا رأوا الدم على عنقي وقميصي أثناء دخولي إلى الكنيسة.

يوحنّا

حين انتهت أمَي من العزف ذهب أبي إلى الأرغن. لا لكي يعزف بدلاً من أمّي، إذ أنه لا يعرف العزف. إنه صعب جداً. لقد جرّبتُه ولم أقدر على العزف. يبدو شيئاً بعيد المنال وغريباً حين لا تملك الموهبة للعزف.

حاول أبي مع أمّي لكي تستمرّ في العزف. لكنها لم ترد ذلك. أرادت أن تبقى حزينة فحسب.

تغدو أمّي أحياناً حزينة جداً، بدون سبب معيّن. إنها تقول إن هذا يشبه نوبة قهقهة مكبوتة، على الرغم من أنها لا تعبّر عن الفرح. أثناء نوبة القهقهة يضحك المرء على أشياء ليست مرحة، وهي تحزن على أشياء لا تثير الحزن.

وتقول أيضاً أنه ليس عليَ أن أقلق، لأن هذا ليس أمراً خطيراً، وسوف يزول بمرور الوقت.

*

حين التفتُّ رأيتُ الجالسين في الكنيسة يحاولون رؤية ما يجري عند الأرغن. بعضهم تظاهروا بأنهم لا ينظرون، لكنهم كانوا ينظرون ولو غمزاً. نحن الجالسين في الصفوف الأمامية فحسب استطعنا مشاهدة ما فعلته أمي وأبي لأن درابزيناً مرتفعاً موجود على الطريق. وهذا الدرابزين مثبت هناك لكي لا يسقط عازف الأرغن على الأرض.

ترك أبي الكاميرا على المقعد. اعتقدتُ أنها تشبه

فترة الاستراحة وقت الدفن، فانتهزت الفرصة لالتقاط بعض الصور في حال لم ينتبه أحد إليّ.

كانت الصور جميلة.

صوّرتُ في البداية حين كان الحاضرون جالسين ينظرون إلى الخلف في الكنيسة. تبدو تلك الصور ممتعة لأن أبي لا يتصوّر أن بإمكاننا رؤيته لاحقاً. التقطتُ صورتين أثناء محاولته إسعاد أمّي. كانا بعيدين، لكنني ضيّقتُ العدسة لكي أرى ماذا يفعل بوضوح نوعاً ما.

حين تكون أمي حزينة جداً، يتوجب علينا إسعادها بطرق غريبة، لكن تلزمها في هذه الحالة، كما يقولون، الصدمة الفيزيائية.

الصورة الأولى هي لأبي وهو يهزّ أمّي. هذه الصورة جيدة لأن أبي يبدو فيها واضح المعالم، وأمي غير واضحة. عدم وضوح أمّي ليس بسبب أنني عبثت بالكاميرا. هذا ما علمتني أمّي حين بيّنت كيف يتم نقل الصور إلى الحاسوب. لا، أمّي غير واضحة لأنّها غير ثابتة. ليس هذا خطأها، لكنه خطأ في كل الأحوال.

لقد تفاجأت وهي تكاد أن تكون شبحاً.

الصورة التالية هي لأبي وهو يضرب أمّي. ليس بقوة، بل بخفّة على صدغها. وفي الحقيقة لا يجوز لأحد ما أن يضرب شخصاً آخر، حتى براحة يده. لكن أبي فعل هذا مع أمّي لأنه أراد أن يكون لطيفاً معها.

حينما شاهدتْ أمّي الصورَ، نظرتُ مطولاً إلى هذه

الصورة بالذات. قالت إنني كنت ذكياً وناجحاً في التقاط الصورة بالضبط لتبيّن اليد وهي تهوي على الصدغ.

أحبّث هذه الصورة. قالت لا يجوز أن نتعارك، لكن هذا كان شيئاً آخر. أحياناً يجب أن نقوم بمثل هذه الأمور التي لا نريدها، لأنها الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله.

ثم قالت لي أن أنظر إلى اليد الأخرى لأبي، اليد التي لا يضرب بها، بل يطوق بها كتفها، كأنه يحتضنها في نفس الوقت الذي يجب عليه أن يضربها.

شاهدث مطوّلاً هذه الصورة ثم تنهدّت.

الصورة الأخيرة هي للحاضرين وهم جالسون على مقاعدهم ثانية. ألقت أمي نظرة سريعة على هذه الصورة قبل أن تنزل الشاشة. لم تقل شيئاً، بل قطّبث حاجبيها، كعادتها حين تعبّر عن امتعاضها من أيّ شيء.

ربّما لم ترَ جانباً إيجابياً في تلك الصورة؟ ألا وهو، إن الذين يجلسون في الصف الأمامي ويمكنهم الرؤية من فوق الدرابزين، يبدون مختلفين في الوجوه عن الذين يجلسون في الخلف.

«الناس»، اكتفت بقولها: «لا يفهمون».

الفصل الثالث عشر

المرأة العجوز

ليَنارت

لقد تحوّل ما تبقى من مراسم التشييع إلى كابوس. كابوس لعين. نجحتُ في إعادة مونا إلى مقعدها، عبر حملي إيّاها. ومن حسن الحظ التقتنا المعلمة اللعينة ليندمان فوق الدرج وقالت إن بإمكانها عزف بقيّة الأناشيد. إنها تعرف العزف على البيانو، وهناك فرق بين البيانو وأرغن الكنيسة، إذ أنني سمعت أدائها، كان رديئاً للغاية وكانت تخطئ طوال الوقت.

وحين جاء وقت قيام كل شخص بوضع وردة على نعش فالتر، عثر يوحنا على الكاميرا. حاول أن يكون محتاطاً، ولم يركض هنا وهناك، أو يصرخ، فتركته يفعل ما يريد. لم يتوفر لدي وقت لتوجيهه بخصوص هذه الأمور، إذ كنت مشغولاً بالإمساك بمونا لئلا تسقط.

وبالطبع لم تستطع المعلمة ليندمان إلا أن تكون معلّمة المدرسة وتأتي وتحدثه. حاولت أن تفعل ذلك بهدوء، لكن من الطبيعي أن الجميع لاحظوها. ماذا كانت تظن؟ لن يراها أحد حين تقدم دروساً لابني عند المذبح؟

بدا علينا أنا ومونا، أننا نتجنب الأمر، كأنها كانت غلطتنا أن يكون يوحنّا على ما هو عليه.

لسنا مكتوفي الأيدي.

أصبحت الدعوة مقتصرة على القهوة الفاترة فتور البول، والكعك الجاهز من المحلات لأن مونا لم تقوَ على

الخبز. نحن مع مجموعة من المتقاعدين جلسنا نمضغ الكعك بأسناننا الاصطناعية التي كانت تتناقش حول الطقس والرياح، وأمور مهمة عندهم كأنهم في ليلة خاصة للعبة البينغو.

جلستُ هناك محاولاً تغطية ملابسي الملطخة بالدم، وقمتُ في نفس الوقت بمواساة زوجتي المنهارة، وحاولت تشجيع ابني «المتميّز» على أخذ صور عادية فحسب.

على الرغم من ثبات الموقف هنا إلا أنه بدا سخيفاً. وبالطبع، أتحامل على الثعلبة التي اضطرت إلى الركض أمام السيارة، والغضب على المعلّمة ليندمان التي لم تلزم الهدوء عند المذبح. وإلا لكان كل شيء على ما يرام. هكذا هي الحياة. فظيعة دائماً. فالتر ميّت، لم يعد يقلق على شيء، وهذه أكبر فائدة يجنيها الإنسان من الموت.

ومن المزعج أنني أكاد أكون على يقين من أن هذه المرأة العجوز كانت حاضرة في مراسم تشييع فالتر.

لينارت

تقول مونا إن كل الأيام فريدة من نوعها، وما من يوم يتكرر.

أفهم ما تعنيه بكلامها ذاك، لكن صياغتها له خاطئة، إذ ثمة أيام تعود إلى الوراء، تتكرر مرة بعد أخرى. لا يستطيع المرء التخلي عن تلك الأيام، على الرغم من أنه يقوم بكل ما في وسعه لكي ينساها.

*

بعد وصول يوحنا مباشرة إلى البيت ومعه أموال المرأة العجوز، روى لنا ما جرى، فذهبت بالسيارة إلى بوليدن. كنت مضطراً إلى الاطلاع على ما جرى بنفسي، والتفكير في إمكانية إيجاد مخرج من الورطة.

قدت السيارة كأنني في سبات. اضطربت أفكاري ولم أستقر عند أية فكرة. لم أكن أعرف بماذا أشعر. إن كنت حزيناً أم غاضباً. أن تكون غاضباً وحزيناً أحياناً شيء واحد، كلاهما يحفر في الصدر بطريقة واحدة.

أو هكذا تنتابك كلتا الحالتين على الأغلب، وتأخذ بخلطهما معاً.

أتذكر أنني كنت أكثر الوقت أفكر في أن الطرق أصبحت زلقة، إذ سقطت الثلوج قبل يوم، وكانت درجة الحرارة تحت الصفر. تصوّرت أنه كان ينبغي في عطلة نهاية الأسبوع الفائتة أن أضع الدولاب الشتوي مثلما كنت قد قررت.

وكان عليّ حقاً أن أصلح هذا المدفأة اللعينة.

*

كنت أنا من وجدها. لم أحتج إلى البحث عنها لفترة طويلة. كانت مستلقية هناك حيث تركوها.

*

كانت زرقاء. زرقاء تماماً. زرقاء بسبب البرد. معطفها أزرق. حذاؤها أزرق. الشيء الوحيد الذي لم يكن أزرق هو جرح واسع مفتوح في صدغها، سالت منه الدماء، لتشكّل لطخة داكنة أسفل رأسها.

ولا شك في أننا تأخرنا كثيراً.

*

قضيت برهة طويلة وأنا أنظر إليها. لم أبذل أي جهد للمساعدة. كيف يمكن أن تساعد شخصاً ميتاً؟

تريد أن تساعد، لكنك عاجز.

كانت تبدو صغيرة جداً. كما بدت تقريباً حدباء الظهر وهي في معطفها الأزرق. كان وجهها من النحافة بحيث كانت تظهر تجاعيده فحسب. تجاعيد زرقاء وجرح مفتوح.

كانت ثمة بيريه ملقاة بجانب كتفها.

لم أعرفها في ذلك الحين. أخذت أفكاري تتجمع عند وصولي إلى البيت. لأول مرة في اليوم حين لم يبق أمامي شيء سوى تأمل ذاك المشهد.

لا يستطيع الشخص أن يفعل شيئاً مفيداً حين يكون

في انتظار العدالة أن تأتي إلى ابنه. لا يجوز. أشعر أنه غير صحيح. يقف المرء هناك يشاهد كومة الحطب ويفكّر: «فيما بعد». ثم تذهب إلى المرأب لإصلاح مدفأة السيارة، غير أنك تدخل ثانية. من المحتمل أن تستسلم لشيء ما. فالأفكار لا تتبعك.

لكن الأفكار تأخذ بالتواصل أثناء الانتظار.

اقتنعتُ أن المرأة كانت حاضرة في مراسم التشييع. كانت عجوزاً جالسة عند إحدى المناضد، ضئيلة ومحنية الظهر بحيث لم تثر أي اهتمام حين نهضت. كلما فكّرتُ في هذا الأمر، ازداد يقيني بأنها كانت هي. طلبتُ من مونا أن تساعدني في الإتيان بالصور التي التقطها يوحنا لمراسم التشييع. إنهما لا يهيئان ألبوماً للصور، بل يحفظانها في الحاسوب.

لم أقل عمّ كنت أبحث، بل قلتُ إنني أريد أن أراها فحسب، وإن فالتر كان صديقي أيضاً، ليس والدها فقط.

كنت أبدو غاضباً، لكني لم أكن كذلك في الواقع.

*

لم أجد لها أية صورة. كانت ثمة صور كثيرة لرجال مسنين، وعجائز شمطاوات، التقطها يوحنا لهم، ولكن لم تكن من بينها ولا صورة لها، حتى ولو كنتُ على قناعة بأنها كانت حاضرة هناك.

من الممكن أن أكون على خطأ، فإنّ المرأة التي أفكّر فيها كان معها رجل اتكأت عليه حين أرادت الذهاب،

جميعهم تركوا كراسيهم الجوَّالة في الردهة، كأنهم بالضبط ليسوا في حاجة إليها وهم في كنف الله. وقفوا في صفوف كأنهم في مَزأب لعين.

كانت تتكئ على رجل، لكن السيدة التي سرقها يوحنَّا كانت أرملة، مثلما أبلغتنا الشرطة.

يا للحظ السعيد! قالوا إنها كانت تعيش لوحدها.

يمكن أن أكون على خطأ فيما يخص تلك المرأة. فجميع الحاضرين في مراسم التشييع التصقوا ببعضهم لكي لا يأتيهم دورٌ في السقوط.

ربّما كان أخوها، أحد معارفها، من استندت عليه. من يعلم؟ إنهم يساعدون بعضهم البعض.

يجب أن تكون هي. هكذا تكون خيوط الشيطنة.

حاولتُ استحضارها في ذهني هناك. حكت مونا إنها تتخيل أفلاماً في رأسها عمّا تريد أن تتذكره. تراجع كل شيء بدقّة فتسقط القطع على المكان، وكذلك الأشياء التي لم تعرف أنها كانت قد ملكتها. أحاول فعل نفس الشيء مع المرأة والتشييع. لكن في حوزتي أقلّ ما يمكن أن يكون ذا صلة بها. أتذكر أنني كنت جالساً وأنظر إليها، إذّاك جاء القس إلى منضدتنا. وهذا كل شيء. لم تضع وردة على تابوت فالتر. ليس في فيلمي.

*

إنها جالسة تدير ظهرها لنا. يمر القسّ أمامها في طريقه إلينا. لا يبدو أكبر كثيراً من يوحنا. صوته طفولي، حادّ تقريباً.

«كيف حال زوجتك؟» يسأل وينظر إلى مونا. إنه يسألني على الرغم من أنها جالسة بجانبي.

«طبعاً»، أقول. «أبوها ميّت كما ترى، وأنت ترى...».

يومئ برأسه، لكنه ينظر إليها بدقة، كأنه يظن أن واحدة أخرى تقف خلفها.

«أعزيكم بمصابكم»، يقول، لكنه يعدّل كلامه مباشرة تقريباً. «أو بالأحرى، إنني أشارككم أحزانكم».

ويمكن أن نقول الآن هكذا، أن تعبيراً له رنين أحسن، حلّ محل تعبير آخر. بالضبط مثلما هو مع «الله مالك الملك».

أسكتُ منتظراً منه أن يأخذ في الكلام عن فالتر، ويقول إنه كان إنساناً خيّراً، وإن حاله الآن هو أحسن مما كان فيه. لكنه لم يقل مثل هذا الكلام. فيأخذ بالاستدارة والنظر إلى الاتجاه الذي أنظر إليه.

المرأة الصغيرة نجحت في النهوض، وقد وصل الرجل الذي سيساعدها. لا أرى أيّ شبه بينهما.

يؤكد القسّ الذي يجلس إلى جانبي: «أكثر من أعمل معهم هم (متقاعدون)، ويكاد يكون العجزة هم الوحيدين الذي يأتون إلى الكنيسة في الوقت الحاضر».

«وهذا يكفي»، أردّ عليه.

- «يعرفون ما يريدون. إنّها ليست بصيحة موضات جديدة».

يلقي نظرة إلى السماء، وينظر في نفس الوقت إليّ نظرة ذات معنى. أومئ برأسي، على الرغم من أنني أريد أن أقول له أن يصبح جادّاً، أن يبدي احتراماً للذين لا حاجة بهم إليه.

بدأت المرأة والرجل يتحركان فوق البلاط باتجاه بوابة الخروج. يمشي قليلاً بانحناء لكونه أطول منها بكثير. يمشيان في انسياق ويمسكان ببعضهما البعض، كأنهما يرقصان.

يقول القسّ: «أودّ لو سألتك، أهذا دم على سترتك؟».

أفكّ النظر عن الزوجين العجوزين. لأقول له بسرعة:

«عذراً، لم ألحظ هذا إلا قبل قليل. لقد دهسنا ثعلبة في طريقنا إلى هنا. وهذا ما...».

يحرّك رأسه.

- «لا مشكلة. الغالبية لم تلحظ هذا. وكان ينبغي أن لا أقول شيئاً، لكن صادف أن أرى و.. نعم...»

* «حسناً فعلت بسؤالك... أفضل من أن تسكت أمامي وتتكلم عنّي فيما بعد وراء ظهري».

يستمرّ في تحريك رأسه.

- «مثلما قلتُ لا مشكلة على الإطلاق. بصر أغلبهم ضعيف. وقد جاء أغلبهم لاختيار أماكن لقبورهم في المقبرة».

يضحك لنكتته وأنا أبتسم له، على الرغم من شعوري بالنفور منه.

ها هو مرافقها يفتح باب الردهة حيث تستند على إطارها أثناء المشي.

«لا أحد يريد أن يموت». يقول القسّ ويغدو جدّياً: «هذا واضح أثناء مراسم الدفن. لا أحد يريد ذلك حتى حين يمسي عجوزاً».

«لا، على الرغم من كلّ شيء، لا يريده».

يبدو صعباً عليه أن يستوعب أنني لن أصبح أحد مريديه الموثوقين تلقائياً لكوني أصغرهم في هذا التجمع، إذ أنني هنا حاضر كأحد المعزّين.

يستمر في الكلام: «توجد حكاية وجيزة وهي أن

ولداً شاباً وأحد العجائز جلسا يتناقشان حول أمور الحياة. مرّا على فوائد الشيخوخة والآلام، وفائدة الجسم العاطل عن العمل. أجل، تعرف أنت».

أتنهدَ.

يقول الشابّ: «الأفضل أن يموت الإنسان، من يريد بحق الشيطان أن يبلغ الثمانين؟». ينظر إليه الشيخ العجوز بنظرة صبر الشيخوخة، قائلاً له: «هذا الذي بلغ التاسعة والسبعين».

أشعر كيف ينظر إليّ منتظراً منّي أن أمدح الحكمة فيما قال.

* «فالتر بلغ الثانية والسبعين فحسب». أقول له مشيحاً بنظري إلى البعيد من فوق المنضدة.

- «هذا أقل من ثلاثة وسبعين. إلا أنه أكثر من واحد وسبعين».

* «شيء أفضل من الموت دائماً».

- «نعم».

* «نعم، وهذا ما قرأته في كتاب (مسيرة العازفين) من تأليف ب.و. انكوسيت. لقد ترعرع في هذه المنطقة، كما تعلم».

- «أجل»، أقول كأنني أعرفه. مونا هي التي تقرأ في العائلة.

* «يجبّ أن أبحث في هذا».

ألتفت ثانية تجاه المدخل حيث المرأة والرجل لم يعودا يترائيان لي. يمكنني أن أرى من خلال النافذة

سيارة أجرة تصل. أتيحت لخدمة نقل العجزة في حركة مرور مكوكية إلى مراسم دفن فالتر.

يستمر القس في الكلام: «إن الله هو من يحكم ويدير».

يبدو شابّاً للغاية ومضحكاً جداً في صوته.

- «حين يحين وقث أيِّ شخص يأتي المسيح ليأخذه، ومن الأفضل أن نقبل بهذا».

أفكّر بالفوضى التي حدثت في غرفة فالتر.

أقول: «إنه الوحيد الذي لا يأتي مبكراً».

ولا نجد المزيد من الأشياء التي يمكن الحديث عنها. فالمرأة توارت، لكن القسّ باقٍ، واستقرت نظرته على يوحنّا الذي يجلس عند إحدى المناضد ويقوم بتصوير الورود. يقوم بتضييق عدسة الكاميرا وتوسيعها. يبدو عاجزاً عن اتخاذ قرار.

يقول القسّ: «إنه ابنك، أليس كذلك؟».

* «اسمه يوحنّا».

- «أرجو المعذرة من أنني أسأل ثانية، لكن.. نعم، هكذا أتفادى الجلوس والاستفسار..».

يتصرف وكأنه خجلان.

أقول له: «يعاني يوحنّا من التوحّد».

يحرك القسّ رأسه، لكن يبدو أنه لا يعرف ما هذا.

* «إنه ذكيّ مثلك ومثلي، لكنه يفكّر بشكل مغاير. يصعب عليه أن يفهم مشاعر الآخرين. إنّه مثل الطفل

أحياناً».

يحرّك القسّ رأسه ثانية.

- «لقد رأيت هذا البرنامج في التلفزيون عن الذين في شوبنغ مثل.. نعم...»

* «متخلفين عقلياً؟».

يتصوَّر أن يوحنّا مثلهم. هذا دائماً يحدث حين تقوم بشرح حالة يوحنّا.

أقاطعه، قائلاً: «ربّما لقسم من الناس ليس مهماً أن لا يكون المرء بالضبط مثل الآخرين».

يحني رأسه خجلاً.

يقول لي: «إنهم يتساوون مع الآخرين في القيمة، فلا فرق بين البشر».

لا أحبّ مثل هذه التعليقات. إنها تعني بشكل آخر أن البشر ليسوا متساوين في القيمة.

لينَارت

كان الكرسي المتحرك على مسافة قريبة من المرأة في الطريق الخلفية. الولدان اللذان كانا أصغر المشاركين معهم، كانا يلعبان به بينما أخذ نيكلاس ويوحنّا الحقيبة. هذا ما رواه يوحنّا الذي لم يسنح له الوقت لكي يجرّب، لأنه كان مضطرّاً إلى مغادرة المكان.

يوحنّا يكون مثلما هو عليه، أمّا الآخرون؟ كيف يستطيع الإنسان اللعب بكرسيّ متحرك وإنسان جريح ملقى على الأرض؟ يعيش يوحنّا في عالمه الافتراضي وقد فعل ما تصوّره صحيحاً، إنه لا يفهم. ولكن ماذا عن الآخرين؟

لا أدري كيف يُخلق الإنسان بهذا الشكل. إنهم مخلوقون هكذا وإن ثمة خطأً حقيقياً فيهم.

*

وقعتْ بطاطا يوحنّا العملاقة إلى جانب الكرسيّ المتحرك. فتركها هناك.

*

رفعتُ الكرسي المتحرك لسبب من الأسباب وأدخلته في الصندوق الخلفي للأمازون. التقطتُ البيريه ودسستها في جيب سترتي. ثم حملتُ المرأة بذراعي ووضعتها في المقعد الخلفي. كانت صغيرة الجسد، خفيفة، لكنني اضطررتُ إلى رفع رجليها قبل أن أسدّ الباب.

قدتُ بعد ذلك مسافة ثلاثة أميال إلى شيليفتيو. إلى الطوارئ. نقلتها إلى الطوارئ. لماذا لا أعرف، فقد عرفتُ أنها كانت ميّتة.

ربّما تصوّرت أنهم كانوا يستطيعون فعل غير الممكن.

*

أعرفُ أنه كان ينبغي أن أتركها في مكانها. كانت ميّتة وكان هذا مكان الجريمة. لكني لم أتمالك نفسي لترك ما قد كان، فجعلتُ كل المجتمع اللعين يرى ماذا فعل ابني.

قبل أن أغادر المكان أخذت مسحاة الثلج الصغيرة من السيارة فكشطتُ الدم من الثلج. وضعتها عالياً عند جدار البيت. لم أفكّر في إخفاء شيء. لكني لم أرد أن يبقى أمام الأنظار.

الشيء الوحيد الذي لم أمسسه كان البطاطا.

ليناَرت

تحدّثنا أنا ومونا في لقائنا الأول عن الله.

وحين وجهت لي مونا السؤال: ومن إذاً بعث بكل هذه الشرور؟

أجبتها: «ومن سيبعث بكل هذه الامتحانات؟».

إن الله لا نهاية له. لا يأخذ قسطاً من الراحة أبداً، حتى حين تكون لديه أعظم المهمّات يدع الأمور الصغيرة تجري في سبيلها. هكذا تجري الأمور ولا يمكن مواجهتها. يثير إخلاصه في العمل أحياناً الشفقة حين لا يدبّر الأمور الصغيرة.

إنه أشبه ما يكون بأن توصل ميّتاً إلى مستشفى الطوارئ في الصندوق الخلفي لسيارتك، أو أن تحمل وزر ابنك الوحيد في ضميرك، أو أشبه بأنه كان ينبغي عليك تركه في حاله، أو على الأقل أخذه إلى الشرطة، لكنك لم تقدر، ولن تقدر، لأنك لا تزال تتظاهر بأن هذه الجثة الصغيرة لهذا الكائن الصغير يمكن إنقاذها، على الرغم من صدغها المحطم وجسدها المتجمد.

أن توصلها إلى الطوارئ، وحين تصل لا تجد مكاناً لركن سيارتك، وتكتشف أنك لا تستطيع ركن سياراتك الأمازون الصدئة إلى جانب السيارات الأخرى، سوى على الحافة، تحت الشجر حيث غير مسموح للسيارات بالتوقف، ويمكن أن ينال صاحب السيارة المتوقفة هناك غرامة بقيمة 350 كرونة للتجاوز على ضوابط توقف

المركبات، وهذا مبلغ كبير.

وتجدك كذلك تدور دوراناً حلزونياً حول أبواب المستشفى. وتجد أخيراً جهازاً أوتوماتيكياً تلقمه الكرونات لاستئجار موقف لتصفّ سيارتك، ولا تدري كم من النقود يجب أن تضع فيه، فإن 8 كرونات للساعة سعر عالٍ جداً، مما يدعو إلى التفكير بأنه لا حدّ لاستغلال الرأسماليين للعمال. لذلك سيكلفني ركن السيارة 16 كرونة لأنني أخمن أن المراسم لا تدوم أكثر من ساعتين، ولديّ في محفظتي كمية كبيرة من النقود من فئة الكرونة الواحدة والتي تشغل مكاناً فحسب، وعلى الرغم من ذلك لا أضعها في الجهاز لتصوّري أنه عمل لا ضرورة له.

ترجع بعد ذلك إلى السيارة، لتضع الوريقة كالعادة على الزجاج، وتخرج العجوز الميتة من الصندوق الخلفي. وهذا عمل غير مألوف، تحاول حملها بطريقة لا تسقط الميتة على الأرض حين تدور حول السيارة لغلق البابين واحداً بعد آخر بيدك، إذ تفتقر سيارات السبعينيات إلى منظومة أقفال مركزية، ولم تفكر في إغلاقها قبل أن ترفع الجثة.

أقوم بتعديل وضعيتها لكي أستطيع حملها مثلما حملتُ مونا فوق العتبة قبل ثمانية عشر عاماً، على الرغم من إحساسي بسخافة ما فعلته، لكنني أردتُ أن أريها أنني حقاً قويّ.

كم أخجل حين أفكر الآن في هذا، وليس فيما فعله

يوحنا فقط، فمن الصعب أن تمسح الأفكار من الذهن.

وهكذا أمشي تجاه مدخل الطوارئ وفي حضني جثة السيدة العجوز، متجنباً ندف الثلج لكي لا أنزلق وأوقعها على الأرض، لا لأنه في الواقع شيء يحسب ضدي، لكن على الرغم من كل شيء صار هذا. ويتمنى المرء بكل قلبه أن لا يلتقي أيَ أحد، وإنني، في كلّ الأحوال، لا أعرف أحداً.

لكنني أتصور مع ذلك أنني أعرف قليلاً من الناس، وإنني في الواقع لا أحبّ أي واحد منهم بحميمية.

وفجأة أصل المدخل وأفتح الباب بضربة من كتفي بدلاً من استخدام فاتح الباب لأنه مخصص للعجزة ولمن في حاجة إليه، فمثل هذه الأشياء لا يجوز استخدامها إلا عند الضرورة، وهذا ما قلته ليوحنا مئات المرات دون أن أفكر في السبب الذي يحتمل أن مونا هي من قالته أولاً وأصبح حقيقة، لأن مونا معها الحق دائماً.

حين أصل إلى الباب التالي أقرر أن لي الحق في أن أضغط على الزر، أضغط أولاً على زر خطأ فينفتح الباب الخارجي، وبعده أضغط على الزر الثاني فيفتح الباب الداخلي إلى الأعلى محدثاً صوتا كصرخة عاتية، فأخطو إلى صالة الانتظار الضاجة بأناس ينظرون إلى الأعلى، فأتصوّر أن ما أراه كان نمطياً إلى حد اللعنة.

أقف هناك، ثم أخذ وريقة الدور فأنظر إلى الرقم الذي فوق الاستعلامات وأتنهد. عليّ أن أقطع وريقة

الدور اللعينة وأنتظر. لا أهرع إلى الداخل وأريهم أن معي إنساناً ميّتاً عساهم ولعلهم يعيدون إليه الحياة. لا، لم أقم بذلك، بل أخذت وريقة للدور منتظراً بلطف في أحد أركان الصالة.

وجب على السيدة العجوز أن تبقى على ركبتي بالرغم من أنني أخذت أشعر بثقلها، وبالبرد، بعد أن تعبتُ حين رفعتها عن الأرض، بعد أن كانت ملقاةً لساعتين في المرة الأولى، فنقلتها بسيارتي الباردة بسبب المدفأة المعطلة.

لا أعرف لمَ لم أفعل هذا، فلا صعوبة فيه، وبإمكان المرء فعله في نصف ساعة نظرياً، وساعة ونصف الساعة إن حسبتَ الشر الذي ستتعرض له حين لا تجد الأدوات لأن يوحنا قد وضعها في المكان الخطأ، أو أن برغياً ما قد ارتخى ولا تجد شيئاً مناسباً.

بعد برهة تضعها مونا على الكرسي إلى جانبها وتنظر إلى الساعة المعلقة على الحائط لأنها تتصوّر أن المسألة ستأخذ وقتا طويلاً، منذ الآن يأخذ المرء يترقب الوقت ويقلق بخصوص موقف السيارة.

وثم بدأت التساؤلات عن أسباب وجود هذا العدد الكبير من الناس، وإن كان هذا الوضع يومياً، أو لهذا اليوم فقط، حيث يحدث كل هذا لشخص، فيكون في أسوأ ورطة ولعنة.

وتتساءل بعد ذلك عما إذا كان مألوفاً أن يأتي الناس بشخص ميت. لا يتصوَر أحد بأن تكون هذه ظاهرة

مألوفة، وهي في الواقع إنه غير مألوف على الإطلاق، لكنها تحدث أحياناً في الواقع، مرات بين آونة وأخرى. فالعالم من الكبر بما يوجب أن يقرر حمقى آخرون أيضاً مثل هذه القرارات الحمقاء لكي لا يقبلوا بالحقيقة.

هكذا يظن المرء أن عليه مغادرة هذا المكان الخاطئ. وهل يبقى ليرى أين سيأخذها بالرغم من كل ذلك؟ أين هو المكان الصحيح؟ وماذا سيقول الناس إن التقط كل واحد عجوزاً مقتولة بطلقة في رأسها ومشى في طريقه؟

وهكذا تسترق النظر محاولاً الكشف عن دواعي حضورهم هناك، ويملؤك الغضب لأنك تراهم يفعلون مثلما تفعل أنت، وأنت لا يعجبك هذا لأنهم لا يملكون الحق في أن يعرفوا عنك ماذا تفعل.

أفكار تدوخك حتى يظهر رقم دورك على الشاشة.

مونا

عاد لينارت في الساعة الثامنة مساء. كان قليل الكلام وقام بترتيب كلّ شيء. لم تنجُ المرأة من الموت. أطلع الشرطة على المكان وأقنعهم بألا يأتوا لأخذ يوحنا قبل اليوم التالي.

سألته: «كيف أفلحت في هذا؟».

هزّ كتفيه.

قال: «هنا فيستربوتن، وليس نيويورك».

كان هادئاً ومطمئناً جداً. لم أكن لأستطيع القيام بشيء بهذه الدقة مثله قط.

يظهر رقمي في الشاشة، أتركها على الكرسي وأذهب بنفسي إلى النافذة. خشيت أن تقع على البلاط، لكنها ثابتة في مكانها.

*

لا تظهر على موظفة الاستعلامات أية علامة اكتراث. لا تريد أن تتدخل في الموضوع وقد صممت على إظهار لا مبالاتها.

أقول لها بوهن: «معي امرأة عجوز. لقد سقطت».

«حسناً». أجابت بدون أن ترفع رأسها. «ما اسمها وما رقمها الشخصي؟».

- «لا أعرف».

* «لا بأس، وما اسمها؟» مبسطة السؤال.

- «مثلما قلت لك لا أعرف».

* «حسناً؟» تنظر إليَ. كانت أول مرة بعد عشرين ثانية تنظر إليَ، حينها اضطرت إلى إيقاف دورها كجهاز إجابة آلي.

أقول لها: «وجدتها. كانت قد سقطت». أقول هذا فحسب، لا أقول شيئاً آخر. مرة أخرى لم تكن لي النية لإخفاء الحقيقة، بل تحديد ما كانوا في حاجة إلى معرفته فحسب.

- «يمكن أنها... أي.. إنها...» أحاول وأتمنى أن تفهمني، لكن بدون جدوى. إنها لا تفهمني.

«حسناً»، تجيب، «عد واجلس في مكانك، سيأتي بعد قليل أحدهم ليساعدها». وهذا ما لا أستطيع عمله. أشعر بأن الأشياء الحبيسة تأخذ بالانطلاق.

- «إنها، فعلاً، ميّتة، وأنت تقولين لي أن أذهب وأنتظر؟!».

* «ميّتة؟». تبدو مذعورة. من الواضح أنها لا تملك جواباً جاهزاً لهذا. لكن الأمر متأخر جداً.

أقول موبخاً: «أتعتقدين أن امرأة عجوزاً جريحة وملقاة على الأرض لساعتين قادرة على النهوض لتذهب إلى البيت؟».

ترفع التلفون وتخابر جهة ما، لكن لا أستطيع أن أتمالك نفسي.

- «نعم، خابري. سأذهب أنا وأجلس. فيكون بإمكانك معالجة بعض كسور في ذراعها، والآلام في بطنها أولاً، لأجلس أنا وأمسك بالسيّدة منتصبة ريثما يأتي وقتنا نحن الطبقة العاملة. من يعلم، ربّما نكون محظوظين فتكفي مبالغ الضرائب للصاقة لرأسها المكسور، أو أن رواتب الأطباء قد أتت على آخر كرونة!».

تنتظر ريثما آخذ استراحة حيث قاطعتني بقولها إنها خابرت لطلب المساعدة، إذ سيأتي اثنان من الممرضين بين لحظة وأخرى.

لا أرتاح لها.

أفكّر أولاً في الذهاب لجلب المرأة لنكون على

استعداد لاستقبالهم. لكنني لا أفعل ذلك فأخسر الوقت الكثير. أقف هناك، أراهما قادمين. ليسا الرجلين اللذين أتيا بفالتر، لكن يمكن بكل بسهولة أن يكونا ذينك الرجلين. إنهما بنفس ضخامة الرجلين الأولين، وأشبه بهما شباباً، واتزاناً وهدوءاً.

أشير إلى مكانها، ينظران إليها حين يتقدمان منها بالنقالة. يقيسان نبضها بذكاء، ويفحصان تنفسها، لكنهما يكتشفان أن نبضها وتنفسها توقفا منذ وقت طويل. ينظر الآخرون في صالة الانتظار إليها، ويلتفتون إليّ أيضاً. بالتحديد تجاه من يقف هناك.

ينقلانها إلى النقّالة. إنها تكاد لا تزن شيئاً ، على الرغم من ذلك يتبعان قواعد العمل، يمسكان، يعدان، واحداً، اثنين، ثلاثة ويرفعانها. والجميع لا يزالون ينظرون.

*

بعدها أدخل إلى غرفة فحص صغيرة حيث يضعانها ويطلبان مني الانتظار. يذهبان بدون أية محاولة لإعادة الحياة إليها.

لينَارت

الأشخاص الذين يأتون أثناء حضورنا للتحقيق:

ممرضة، طبيب باسم أجنبي، طبيب باسم سويدي، ممرضة أخرى، رجلا شرطة شابان، معاونتان طبيتان إضافيتان، رجلان من المشرحة، ومفوض من البوليس الجنائي.

الأشخاص الذين يتحدثون معي:

ممرضة، طبيب ذو اسم أجنبي، طبيب ذو اسم سويدي، أحد الشرطيين، رجلان من المشرحة (يسلّمان)، أحد مفوضي شرطة الجنايات.

الذين لا يستمعون:

ممرضة، طبيب ذو اسم اجنبي، طبيب ذو اسم سويدي، ممرضة أخرى، رجلا شرطة شابان، اثنتان من الممرضات، ورجلان من المشرحة.

*

أول من يمسكني من يدي هو المفوض. يأخذ بيدي، يضغط عليها بقوة ويخبرني باسمه: «بيريستروم».

وهو من حضر هنا ليسمع روايتي، وليسجلها في دفتر ملاحظاته لكي يصدر فيما بعد حكمه عليّ وعلى ابني. وزنه زائد ويبدو عليه التعب، ويشبه قليلاً رولف لاغورد. أتخيل المشهد في البداية كأننا في فيلم بوليسي نشاهده في التلفزيون. وهو (والندر) آتٍ لفرض العدالة. وأفكر بعد ذلك أن ما أشهده شيء آخر.

يطلب مني أن أتبعه.

- «لنذهب إلى غرفة أخرى، نتكلم بدون إزعاج من الآخرين».

يطلب من إحدى الممرضات حين التقيناها في الممر كوبين من القهوة، واحد منهما لي، ثم نمشي إلى غرفة تشبه الغرفة التي تستلقي فيها المرأة.

- «لقد كنتَ أنت من وجدها، إذاً»، يقول: «إن الشرطة الذين قد تكلمتَ معهم من قبل، قالوا إنك... هل تعرف كيف حدث كل هذا؟».

لا تبدو عليه الصلابة. وأشعر بأنه يريد أن يفهم، فأخذتُ أروي له، عن يوحنا، والتوحد مثلما يسمى، وعن المدرسة ونيكلاس وفالتر والبطاطا.

كان يصغي إليَ وحين أنتهي، يعود ليكتب. ثم يتساءل إن كان ممكناً أن أريهم المكان.

*

نسير في طابور تتقدمه سيارة الأمازون ذات المدفأة المعطلة، تليها سيارة فولفو ف70 يركب فيها مفوض جنائي بدين، وفي الأخير سيارة شرطة زرقاء وبيضاء لا صوت إنذار لها.

*

أشير إلى المكان أثناء وصولنا إليه. لا يقولون شيئاً عن آثار قدمي على الثلج ذهاباً وإياباً. ولا عن الدم النافذ فيه.

*

أخذوا يحققون مطولاً. إنهم على علم بكل ما قد حدث، ويحققون في أدق التفاصيل. وضعوا الثلج الملطخ بالدم الذي قمت بجرفه إلى جانب الطريق، في علبة يضعون عليها علامة. يأخذون حتى بطاطا يوحنّا ويضعونها في كيس وسيع، يلصقون به بطاقة، وعلامة أيضاً. أعطيهم البيريه ويقومون بعمل نفس الشيء معها. يعود الآن المشهد كأنه يعرض على التلفزيون.

يسألني بيريستروم إن كنت أعرف أين يعيش نيكلاس. ويتساءل مرة أخرى إن كنت لا أتذكر اسمَي الآخرين. أحرك رأسي. قال لي يوحنّا اسميهما، لكني لم أقم بتدوينهما قط، ولا لقبيهما.

يمسك يدي. إنه ليس غاضباً. يشكرني مشفقاً عليّ.

يقول: «الوقت متأخر الآن. سأبعث بسيارة من البلدية غداً. من المحتمل بأسرع ما يمكن، لكن... نعم، ومن أجل الجميع أعتقد أنه من الأفضل أن يبات يوحنّا في البيت الليلة».

أظن أنه يعرف كلّ شيء.

*

هذا هو كلّ شيء. يغادرون المكان في نفس الوقت الذي أغادر أنا فيه . تسير السيارات في صف واحدة بعد أخرى، عبر القرية إلى الطريق الخارجية أي 95 التي تؤدي إلى شيليفتيو، ومنها إلى ستروفورس. يقفون عند القنطرة فوق غدير كلوكار، بينما أنا أستمر في السير،

وأستطيع أن أرى في المرآة الخلفية كيف يسيرون إلى أسفل المنحدر. ندمتُ في وقت متأخر من الليل على عدم مرافقتي لهم إلى المنحدر لكي أرى الحقيبة، وكيف هو شكلها، وإن كان لها اللون الأزرق كذلك.

أخذوا يتوارون عن أنظاري في المرآة الخلفية. أتصوّر أن الجو أمسى أكثر برودة.

*

حين أصل البيت أعلم أن كرسي المرأة لا يزال في فسحة موقف الأمازون، مما حفزني أولاً على مخابرة بيرستروم. وثم أقرر أن أدعه يبقى في مكانه. هذا شيء غير مهم. ستكون ثمة مساومة. أذهب لأجيء به، لكنني أضعه في كوخ الدراجة الهوائية حيث سيصبح مفتوحاً.

الفصل الرابع عشر

نيكلاس

ثمة أشياء غريبة. من الغريب أن تجلس مرتاحاً لوحدك في الحافلة، لكنك ستحزن إن جلست لوحدك في ساحة المدرسة. وفي الواقع ينبغي أن يكون الشعور واحداً في الحالتين، لأنهما نفس الشيء. ولكني حين سألث أمّي أجابت بأن الأمر يبدو وكأنه نفس الشيء.

قالت: «ثمة فرق بين أن تكون وحيداً وبين أن تكون بمفردك». أعتقد أنها فكّرت في توضيح المسألة بطريقة ما، فشعرت أنها تبدو حزينة للغاية فلم نتكلم أكثر عن الموضوع. وعليك أن تكون محتاطاً مع أمك، مثلما يقول أبي.

كان مريحاً ومزعجاً في آن الذهاب بالحافلة إلى شيليفتيو. لم يحصل الشيء الكثير. فقد اعتدث على القيام بأشياء مختلفة لكي لا يصيبني الملل.

في الربيع حين تكون السماء منيرة كنت أجلس في الصف الأمامي وقتاً طويلاً، وأنظر إلى السيارات المارة أمامنا. قمت بعدّ السيارات التي لها ألوان متميزة، أو كم سيارة مرت من نوع الفولفو، وهكذا. أغلب السيارات تبدو متشابهة، لكن حين تكون فولفو تراها مباشرة. عندنا فولفو، لكن أبي يريد أن يشتري سيارة من موديل أحدث.

وحين جاء الشتاء والظلمة كنت أجلس لفترة طويلة في الخلف، أنظر خلال النافذة، بالرغم من أنني أكاد لا أستطيع رؤية شيء. وعادة كنت أحاول تذكر طول

المسافة التي قطعناها. التفكير في حال تجاوزنا تقاطع سفانستروم، أو ما شابه.

اعتدتُ، وبالتحديد في سفانستروم، أن أتظاهر غالباً بأننا نستدير، وأن سائق الحافلة يصمم على القيام بعمل آخر في أحد الأيام. هذا ما قام به أحد سائقي الحافلات مرة في التلفزيون حين أخذ المسافرين في عطلة. تخيلت أننا استدرنا، وسرنا بسرعة في الطريق، مروراً بترسميران وساندفورس، إلى أن وصلنا إلى ستورموجيتريسك حيث توقف السائق، فمشينا على طول غروس إلى الساحل حيث استعرنا قارباً مجهزاً بالمحرك، لأن الصيف فاجأنا بمجيئه، فقضينا النهار كله في صيد السمك بالصنارة. هذا ما نعمله أحياناً في الصيف أنا وأبي. فحتى أصدقاء الحيوان أيضاً يجوز لهم أن يصيدوا السمك بالصئارة لأن السمك لا يفهم شيئاً.

«وهكذا لن تحصل على شيء». يقول أبي.

وهذا في الواقع ليس بصحيح. نكاد دائماً أن نحصل على السمك. لم نصد أية سمكة في إحدى المرات فأخذث تمطر، ولكننا بقينا بالرغم من المطر.

«لا يمكن أن نعود إلى البيت بعد أن قطعنا هذه المسافة الطويلة بسبب أن الأحوال الجوية ساءت قليلاً» قال أبي. وكان على حق في هذا. على الرغم من أن الغضب بادٍ عليه ورأى أن لا ضرورة لما قمنا به.

لكن السائق لم يقم بالاستدارة قط. كان جالساً ينظر

إلى الأمام بشكل مستقيم، وعلى الرغم من أن علامات التعب كانت بادية عليه على الدوام تقريباً، إلا أنه لم يأخذ إجازة. ويعتقد الناس أحياناً أن الآخرين يريدون أن يفعلوا شيئاً، لأنهم يريدون. ولكن ليس كل شيء على هذا المنوال، تقول أمّي.

*

كنت أسافر إلى شيليفتيو لسنتين لوحدي. لم يكن برفقتي أحد في فترات الاستراحة، وكان الحمقى يقفون ضدي أثناء المحاضرات حين كانت المعلمة غافلة عنّا.

لكن في اليوم الأول لدوامي في الصف التاسع كان أحد الأولاد الجدد في الحافلة أثناء صعودي إليها.

كان صغيراً نوعاً ما ويبدو حانقاً. كان في اليومين الأولين يحدث الكبار فقط، فلم أتمكن من محادثته. وجاءني في اليوم الثالث، سألني إن كنت أنا يوحنّا.

«نعم»، قلت له.

«سمعتُ كلاماً عنك» قال لي. وجلس أمامي. لم يقل لي ما اسمه، ولا شيئاً آخر. كان جالساً في المقعد المقابل لي أثناء عودتنا إلى البيت أيضاً. وكذلك في اليوم التالي، وهكذا دواليك.

وقد تكلمنا مرة أخرى مع بعض بعد مرور ستة أسابيع.

أتذكر المرة الأولى التي التقيت فيها نيكلاس، حين كان لا يزال في الصف السادس. وكان في السنة قبلها أيضاً قد بدأ بالذهاب إلى شيليفتيو راكباً السفينة بغرض علاج خاص. كنت في حفل جمع العلب البلاستيكية في بوليدن عند زميلة عمل سابقة من بلومان «الوردة». في السنة الأولى بعد أن أنهيت عملي، دعوني إلى مشاركتهم في كل الترتيبات، من ليالي الشراب، واختبار الشوكولاته وسفرات ايكيا. وغالباً ما اعتذرتُ عن المشاركة، باستثناء المرات التي لم أجد مبرراً مقنعاً للبقاء في البيت.

ولا أتذكر لماذا ذهبتُ إلى تلك الحفلة. ربَما أردتُ أن أرى كيف تعيش ألزابت في بيتها؟ أن أعرف إن كانت سعادتها مجرد واجهة؟

انتهى هذا الآن في كل الأحوال، ورجعتُ إلى البيت بكيس من العلب البلاستيكية. وقد قررتُ في الواقع أن أعود بالسيارة، لكنني وجدتها معطلة في المَرأب، فقررت أن أمشي بدلاً من العودة لطلب المساعدة. لم أكن أطيق إذّاك سماع ليئارت وهو يلعن السيارة. كان الوقت متأخراً، وقد أخذ الظلام يخيّم حيث كنتُ أمر بالضوء المنعكس من تلفزيونات الفلل.

هذا يكفي بالنسبة إلي لأنني لم أولد وأكبر هنا لكي أستطيع رؤية بوليدن من الخارج بالطريقة التي يراها ليئارت. إنه يرى كيف تنحدر الأشياء إلى الأسفل

فحسب. لكنني أصوّر الأفلام بعيوني فيظهر شيء آخر. شيء من الصعب وصفه. شيء جميل.

أحبّ الفوضى القائمة هنا. وأشعر أن كل شيء حصل فجأة بحيث لم يستطع أحد أن يخطط له. وجدت التقاطعات الخطيرة لأنها كانت هكذا خطيرة، والبيوت موجودة في مكانها لأنه خير مكان لها. تقع المدرسة في وسط البلدة. إنها كبيرة نوعاً ما، وهي صدى لماضيها كذلك. المباني ترتبط بالمسبح وصالة الألعاب الرياضية، مثلما هو في المجتمعات الصغيرة.

المدارس الابتدائية والمتوسطة متجانبة، وعلى بعد مئة متر يظهر القرميد الأحمر لمدرسة المرحلة الأساسية أمام ساحة إسفلتية مثبت فيها عمود كرة السلة بدون شبكة، محاط بأشجار الورد ومقاعد بشكل منسق.

إن هذا، مثلما قلت، شيء جميل يغطي الدراجة الهوائية المرمية بين أشجار الورد. في أوراق البوظة الملقية أسفل سلة الزبالة إلى جانب فوهة الدخان. يمكن أن تقدم استقالتك بدون أن تتخلى عن أمنياتك القلبية بالتحسن والترقي. التغيّر. هذا ما يذكّرني به القفاز الصوفي الواقع في بركة الماء.

وسط كل هذا، اكتشفته.

جعل الغروب منه صورة مظلمة وحيدة، يجلس على مقعد هناك على حافة ساحة كرة السلة. كان جالساً بانحناء إلى أمام واضعاً مرفقيه على فخذيه. يحمل في يده سيجارة كان يسحب منها بين فترات متساوية. كان

صغيراً جداً. كان حينذاك يبلغ ثلاثة عشر عاماً، أصغر من يوحنّا بسنتين، لكن جسمه كان يوحي بأنه طفل. كان يرتدي بنطلون جينز قصيراً إلى حد ما، وجاكيت جينز كانت تبدو رقيقة. لم يكن مهندماً. ربّما أسيئت رعايته.

لا يمكن تصوّر أن هذا الولد الصغير، بعد سنتين، سيقوم بسرقة حقيبة امرأة مصابة، ويتركها لتموت. بالكاد كنت ألمح وجوده حين كان جالساً هناك منطوياً في جاكيتته الرقيقة.

*

يتمعن النظر فيّ حين أصل دون أن يغير من وضعيته. يواصل التدخين والجلوس منحنياً إلى أمام، ألا أنني أحدس أنه يتهيأ في داخله للدفاع عن نفسه إن اقتضت الضرورة. وهذه هي حياته في تصوّري. يتوقع مني أن أبقى وأعطيه درساً في مضار التدخين، أو أن أشفق عليه وآخذ في ملاطفته. ربما سوف أسمع منه رداً اعتراضياً واحداً في كلا الحالتين. لهذا ينتابه الاكتئاب حين أختار الجلوس إلى جانبه. أضع كيس العلب البلاستيكية كمنطقة محايدة بيننا.

«تسمح أن أستريح هنا لحظات؟»، أقول له. يتردد قليلاً في الرد، ثم يهز برأسه موافقاً.

«هذا بلد حرّ».

يتزحزح قليلاً، بالرغم من عدم وجود ضرورة لذلك، فنجلس.

توصلث إلى هذه الطريقة حين كنت أعمل في بلومان «الوردة»، وكان أحد الطلاب مكتئباً بدون سبب واضح. وبمجرد جلوسك عنده، لا يلبث أن يأخذ بالتحدث عما يريد قوله لك.

«كم الساعة؟» يسأل بعد برهة. ألاحظ أنّ لديه ساعة يد. يسأل لكي يعلم إن كنت أعرف كم كان الوقت متأخراً.

«العاشرة والربع» أجيبه.

«حسن».

يسود الصمت مرة أخرى. لا يلبث التواصل بيننا أن يعود.

«ذهب الآخرون للبيت»، يقول لي.

«أعلم، هذا ما يأتي في يوم ما كذلك».

ينظر إلى البعيد وينفخ الدخان.

«أتريدين سيجارة؟».

يشير إلى علبة السجائر لاستفزازي. يريد بلا وعي تحويل الموقف إلى أراضٍ يعرفها، إن هدوئي يرعبه، فيحاول إجباري على فقده.

«لا، شكراً، لا أدخن»، أقول له. لا أريد أن أقول له أنه ينبغي عليه أن لا يدخن هو أيضاً.

يهزّ رأسه ويعيد العلبة إلى جيبه التي بالكاد تتسع لها.

«هذا ما توقعته»، يقول لي. «أغلب الكبار يعتبرون

التدخين مضراً بالصحة».

أهزّ رأسي.

«لكنني لا أبالي»، يستمر في الكلام.

اختبار جديد ومرة أخرى بعد فترة استراحة. وبأسلوب أرق: «وأمّي أيضاً لا تدخن».

اقتربنا الآن مما يريد أن يرويه، أشعر بذلك، لكني أدع هذا أيضاً يمضي بعفوية.

يخرج العلبة مرة أخرى ليولع سيجارة أخرى، لكنه يضعها جانباً. انتهى دور السجائر. نجلس ساكنين.

«ماذا لديكِ في هذا؟»، كان سؤاله التالي لي. يلكز بقدمه الكيس الموجود بيننا فتندّ عنه خشخشة.

- «آه، علب بلاستيكية»، يقول لي: «علب بلاستيكية؟» .

* «كنت في حفلة جمع العلب البلاستيكية».

لا يعرف ما هذه الحفلة، وليس مهماً أن يعرفه. يؤمئ برأسه كأنه يفهم.

«لقد اشتريت قبل قليل عشرة علب بلاستيكية من صديق». أقول له: «لم أكن في حاجة إلى أية واحدة منها، لكنني اشتريث عشرة منها».

والآن نجحت في اقتناص ما يثير اهتمامه.

يسألني: «ولماذا، إذاً؟». وقد زال أي أثر للسخرية من كلامه.

* «ماذا، ما هذا السؤال؟» أقول له.

- «لماذا اشتريتها؟».

* «تسألني لماذا اشتريث منها أصلاً، أم لماذا اشتريث هذا العدد الكبير؟».

وقع في حيرة من أمره.

- «آه.. لماذا اشتريتِ عدداً كبيراً منها؟»

أستدير نحوه لأريه أنني بصدد إجابته، لكنني أسكتُ كعلامة على أني لا أزال أفكر فيها.

* «في الواقع ، هناك ثلاثة أسباب وجيهة»، أقول له كتمهيد للوصول إلى الإجابة المقنعة.

- «حقاً؟» يقول لي. وبدون أن يواجه نظراتي، يسأل: «ما هي؟».

أستدير عنه مرة أخرى.

* «أراهن على أن بإمكانك أن تحزرها كلها».

- «كيف لي بحق الشيطان أن أحزرها؟»

يبدو صوته مضطرباً، لكنه ليس كذلك. لا يزال معي ومحتفظاً برباطة جأشه.

* «جرّب»، أقول له وكأنني لم أشعر بورطته.

- «نعم، إنك بعمر والدتي. كيف للعنـ... نعم، كيف يمكنني بحق الشيطان أن أعرف لماذا اشتريتِ عدداً من العلب البلاستيكية القذرة؟»

لا أقول إن الجميع متشابهون ويصبحون متشابهين في بواطنهم. هذا هو ما عليه أن يكتشفه بنفسه.

* «جرّبْ»، أكرر له طلبي.

- «اعتقدتُ أن الدوام في المدرسة انتهى منذ سبع ساعات...»، يتمتم ويسكت. يتعمد العبوس، لكنه في الواقع يجلس محاولاً التذكّر. هذا ما أحِبّه.

- «لماذا تريدين أن يعتقد الآخرون بأنك ثريّة؟»، يقول بعد برهة.

* «حدس معقول. لكنهم يعرفون أصلاً أنني لستُ ثريّة».

يبدو عليه الإحباط، فأضيف: «تكاد تصل إلى الجواب».

يبدو أنه يفكّر.

- «ساعديني بمفتاح للحل»، يقول لي بعد هنيهة. «وإلّا فلا يمكن».

* «حسناً. لك السبب الأول. السبب الأول هو أنني أردتُ أن يعتقد الآخرون أنني نويتُ شراء كمية كبيرة من العلب البلاستيكية. والسببان الآخران يتبعان السبب الأول».

ينظر إليّ غيرَ مدرك شيئاً مما أقول. ربّما هذا صعب جداً. لكن نيكلاس ذكيّ. ولم يكن بسبب صعوبة التعلّم حين نقلوه للدوام في شيليفتيو. فالإنسان يخسر الفرص بأكثر من طريقة.

يجلس ليفكر برهة أخرى.

- «هل لأن الآخرين اشتروا كميات كبيرة من العلب وأردتِ أن تصيري مثلهم؟».

* «واو! لقد حزرت! هذا صحيح». أقول له، ولا

يسعه إلا أن يرسم علامة نصر بذراعه. «لقد أردتُ أن أصبح مثل الآخرين. بالضبط». وأستمر في الكلام: «و بعد؟ السبب الأخير استنتاجه أصعب، لكنه في الواقع أسهل».

فترة توقف طويلة للتفكير.

- «لا، لا أعرف».

يبدو عليه الارتياح لجوابه الصحيح على أحد تلك الأسئلة.

* «حسناً، لك مفتاح آخر. من كان هناك عدا أولئك؟».

يبدو عليه عدم الفهم من جديد.

- «ماذا، عدا أولئك؟ كلب، أو شيء ما؟»

* «كلا».

فيشرق وجهه.

- «أنتِ!» يكاد يصرخ من الفرح.

* «أجل. أردتُ أن أعتقد أنني أحببتُ العلب، وأجبرت نفسي على الاعتقاد بأنني كنت مثل الآخرين».

ترتسم ابتسامة رضا على وجهه، و ينحني إلى الوراء ليتراخى قليلاً.

اللغز بات محلولاً. يبدو أنه لم يفكر ملياً في الفكرة الفلسفية التي حاولت إيصالها، لكنها ربّما ستأتي لاحقاً.

- «ماذا ستفعلين بها؟» يتساءل بعد برهة.

* «بالعلب؟ آخذها إلى البيت لأصفّها في إحدى

الخزانات»، أقول.

نتبادل ابتسامة.

- «نعم» يقول. «هل أنت في حاجة إليها؟»

* «أنا؟»

يبدو عليه الدهشة، كأنه من الصعب استيعاب أن أحداً يريد إعطاء شيء ما لآخر.

* «نعم، ربّما تستفيد منها أنت أكثر مني». أقول له.

يفرح لحظة. كأن كيساً من العلب البلاستيكية سيكون الشيء الذي يريد. وبعد ذلك يتدارك الأمر.

- «اوه، طز»، يتنهد. «أمّي ستغضب بشدّة إن عدت إلى البيت مع هذه العلب. إنها تغضب من كلّ شيء، حين تكون سكرانة. ستعتقد أنني قد سرقتها».

* «أهي سكرانة الآن؟»

- «نعم».

* «ألهذا أنت جالس هنا؟»

يمدّ ذراعه.

- «أذهب إلى البيت بهذه الحال؟ إنها وبِئي يشربان الخمر الآن. إن ذهبتُ إلى البيت بكيس العلب هذه، أهلكتني بالسوط».

الآن وصلنا.

لم يثمر لقاؤنا في الواقع عن أكثر من هذا. كانت تلك البرهة هي كل ما استطعت عمله لنيكلاس. أرغم على الكلام. ليس كل شيء، من المحتمل أقل من كلّ شيء بكثير، لكن كان الأهم بكل الأحوال. كان أساساً.

وبعد ذلك كان وحيداً مرة أخرى.

بقينا جالسين لبرهة. حكى لي أن بِنّي هو عشيق أمّه الحالي، لكن العلاقة بينهما ستنتهي قريباً. كانت علاقاتها دائماً بهذا الشكل. وحسناً عملت هذه المرة. علاقاتها دائماً مع عشاقها على هذا المنوال.

حكيت له أن سيارتنا مهترئة. ثانيةً. وأن لي ابناً اسمه يوحنّا كان يذهب إلى شيليفتيو كل يوم. ولم يكن له أصدقاء. طأطأ نيكلاس رأسه.

«أعرف من هو»، قال لي.

*

كان نيكلاس أول من نهض. ربّما كان يهمّ بالاقتراب من السيّدة العجوز الغريبة حاملة كيس العلب.

«كلا، غداً يوم آخر»، استشهد بهذا الاقتباس لي وابتسم. «يوم للذهاب إلى البيت والنوم». ثم أخذ يتجول بهدوء في ساحة المدرسة. استطعتُ أن أراه كيف أخرج علبة سجائره من جديد.

ثمة أشياء تترك آثاراً، أشبه ما يكون أن ترى الخيوط تنزاح عن محورها، وتفكر في إيجاد طريقة ما للفّها من

جديد. خطرت في الشهور التالية في بالي فكرة لإيجاد مبررات لذهابي إلى بوليدن مشياً كلما مررتُ بالمدرسة. كان يجلس أحياناً هناك، يدخن بنفس طريقته المعهودة، منحنياً على المقعد، لكنه لم يكن وحيداً قط. لم أتمكن من إقناع نفسي بالذهاب.

كان الآخرون أصغر مني دائماً. شباب مشاغبون يركضون هنا وهناك، يصرخون، يلعبون بينما كان نيكلاس يجلس بهدوء على المقعد. ربّما أصبح قائدهم. من الممكن أنه قد تسلّم لعبَ هذا الدور.

لم أقدر على رؤية العلاقات الودية.

*

لم أمنع يوحنّا من أن يصادق نيكلاس قبل بضعة أشهر في الصف التاسع بسبب ليلة العلب البلاستيكية، رغم أن شيطنته استؤنفت آنذاك.

تمنيث أن يتمكنا من مساعدة بعضهما البعض. أؤمن بأن كل شيء يحدث لسبب. إن إرادة الله تبدو لنا غامضة أحياناً. لذا فكّرتُ أن يوحنّا ربّما وُلد مختلفاً لكي يتمكن بطريقة خاصة من الوصول إلى نيكلاس ومساعدته.

لم أعد أفكّر بعد.

الفصل الخامس عشر

كيف تصبحون أصدقاء

يوحنّا

حين تصبح صديقاً لشخص ما، في الحالات العادية، سيتم ذلك تقريباً في مدة يوم واحد. مثلاً حين تذهب إلى نفس الفصل، فأول شيء سيقومون به هو الإفصاح عن أسمائهم، وبعد ذلك يقضون بقية اليوم معاً لكي يتعرفوا على بعضهم.

حين انتقل جدّي إلى هنا، قمنا بمساعدته في نقل الأثاث وأغراضه طوال اليوم، بحيث أمسينا أثناء تناول العشاء على معرفة ببعضنا شيئاً ما. لكن لم يحدث نفس الشيء مع نيكلاس.

سألني أولاً نيكلاس إن كان اسمي يوحنّا، فأجبته نعم، فقال في تلك الأثناء إنه قد سمع عنّي. وسكتنا بعد ذلك ولم نقل شيئاً آخر، وكنا نركب الحافلة لستة أسابيع دون أن نتحدث إلى بعضنا، لكنه اعتاد أن يجلس في المقعد المقابل لي.

إلا أنه التفت إليّ في أحد الأيام مرة أخرى.

كان هذا في صباح يوم الثلاثاء وكان يوماً غائماً. كان من المناسب جداً أنه اختار هذا اليوم لأنني لم أكن على ما يرام. تقول أمّي إن الطقس له تأثير كبير جداً، وإنها أحياناً لا تريد النهوض من السرير أثناء الجو السيئ.

كنت جالساً هناك، أشعر بالحزن، حين استدار.

- «بالطبع، أنت يوحنّا الذي صبّ اليرقات في طعام

المدرسة قبل عدة سنوات؟»

* «أجل، أنا. عملت كثيراً من الشغب قبل دخولي الصفَّ السادس».

- «أيَ شغب؟»

* «كيف؟ اليرقة في طعام المدرسة.... إشعال إنذار الحريق إحدى المرات.... رشّ الممر بخرطوم الإطفائية... رمي كرة الثلج الملطخة بالبول على المدير... دس الطباشير في قفل غرفة الاستنساخ فبطلت الامتحانات وهكذا. أشياء كثيرة».

تقول أمي لا يجوز أن تتباهى بأعمالك الخاطئة، لكنني فرحتُ حين رأيته منفعلاً.

- «كل هذا فعلته لوحدك؟» قال.

* «نعم. بالرغم من أن الآخرين ساعدوني قليلاً»، اعترفتُ له. «لكنني الوحيد الذي تجرأ على القيام بذلك».

- «حسن». قال لي. «أمر جميل».

اعتقدتُ أننا لن نتحدث إلى بعض لعدة أسابيع، لكنه في اليوم التالي أتاني إلى مكاني.

- «هل تسمح لي بالجلوس؟» طلب مني.

قلتُ له مسموح.

- «هل يمكنك أن تخبرني أكثر عن اليرقات؟»، قال لي حين وضع حقيبته تحت المقعد. «ماذا فعلت لئلا تنكشف؟»

حكيث له أنني حصلت حينها على مساعدة من أوريان ويونس إذ سكبا الحليب وقاما بحراستي.

- «ألا يسير الأمر بنجاح بشخصين فقط؟» تساءل وهو يبدو مستاءً.

* «لا، يجب أن يكونوا ثلاثة على الأقل»، قلث.

فجلس ساكتاً لبرهة مفكّراً. بعد ذلك طلب منّي أن أروي له عن أعمال الشغب الأخرى التي ارتكبتها. بدأتُ أروي، لوقت طويل. كنت أقص عليه حكايات شغبي طوال الطريق إلى شيليفتيو، بينما كان هو يصغي إليّ. أردت مواصلة الكلام في فترة الاستراحة، قبل بدء الدوام، وبالضبط ونحن نكاد نصل، صعد إلى الوراء ليجلس مقابلاً لي. وحين وصلنا موقف الباصات، أسرع بحيث لم أستطع اللحاق به.

حين رويت هذا لأمّي، قالت لي لا تقلق. إن بعض الناس يحتاجون إلى وقت لكي يعرفوا الآخرين. هكذا كان نيكلاس.

عرفت اسمه لأنها التقته من قبل. قالث إنّ عليّ الانتظار لأرى، إن صمم على أن لا يكون صديقي، فهو لا يستحق صداقتي، أليس كذلك؟

إلا أنها قالت ذلك بشكل آخر لأبي.

*

عندما لا أستطيع النوم، أتسلل إلى أسفل الدرج لأسمع محادثات أبي وأمي. يمكنني أن أختلس النظر

إليهما من خلال التعريشة. يشاهدان أحياناً التلفزيون، ولكنهما أغلب الأوقات تقريباً يتحدثان، وكثيراً ما أشكّل أنا محور حديثهما. وهذا ما جرى حين سأل نيكلاس عن أعمال الشغب.

لا بدّ من أن أمّي قد تحدثت عمّا فعله نيكلاس، إذ كان أبي غاضباً. كانت أمّي تجلس على الكنبة بينما أبي كان يسير ببطء جيئة وذهاباً على الأرضية. هذا ما يفعله حين ينتابه الغضب، ويريد أن يصرخ، لكنه لا يستطيع. إنه مع ذلك يقوم بالصراخ في نفس الوقت الذي فيه يهمس. كأنه يصدر فحيحاً.

- «إيه، شباب اليوم الملاعين!»، يهمس. «لا ذمّة ولا ضمير! والله أكاد..».

لم يصل إلى الفكرة التي ينبغي الوصول إليها، فهدّأت أمي من روعه.

* «بالطبع، أنت تعلم ما هي القضية في الواقع؟» قالت له. «طبعاً تعلم ماذا فعلنا بحق يوحنّا؟».

سكت أبي، ناظراً إلى أمي.

- «لا، حقاً لا أعلم». قال لها. «لكن يمكنك أن توضحي لي إن أخطأنا بحقه؟».

بدا عليه الغضب والاستسلام في آن.

أنا أجيد إلى حد ما الاستماع إلى مثل هذه الأشياء، لأن أمي علمتني كيف أستمع.

* «وضعنا يوحنّا في مدرسة لذوي الاحتياجات

الخاصة» قالت أمي بهدوء.

- «أجل؟».

* «ألا تفهم ماذا يعني هذا؟».

والآن بدا الاستسلام على أمي أيضاً.

- «لا» قال أبي متنهداً. «بلى، أن يُنقلَ إلى مدرسة أخرى حيث لا يحصل هناك أيضاً على المساعدة التي يحتاج إليها. لكنك تقولين إن هذا يعني أشياء أخرى غير هذا أيضاً؟».

ندّت عن أمي أيضاً تنهيدة. «ألا تتذكر كم كان كلّ شيء حساساً في المرحلة العليا في المدرسة الأساسية؟» قالت. «كم كان كلّ شيء قلقاً؟ لو بدا من أي واحد أقل ضعف لهرع الجميع إليه لنتفه مثل الدجاج، مرعوبين من أن ينفضح ضعفهم ويصبحوا الضحية التالية».

- «بلى، من الواضح أنني أتذكر. ولم يحدث أقل تغيّر في تلك المدرسة اللعينة أيضاً...».

قامت أمي بهزّ رأسها.

* «كلا، إنه ليس خطأ المدرسة. إنه خطؤنا. ألا تفهم؟».

نظرت إلى أبي كأنه فهم كما ينبغي.

* «الشيء الأهم بالنسبة إليه في هذا العمر بالتحديد هو أن يتأقلم، حيث يجب ألا يظهر عليه أقل اختلاف، فقمنا على العكس بتسجيله في لذوي الاحتياجات

الخاصة. أتفهم؟».

لأمّي نظرة متميزة تلقيها على من يحادثها حين تعلم أنه ارتكب خطأ ما. والآن تنظر إلى أبي بهذه النظرة.

* «لقد لاحظتَه»، وتواصل كلامها. «كيف أقدمنا على مثل هذا العمل؟ أحسسنا أنه شخص مختلف، فبعثناه إلى حيث الذئاب، وتمنينا أن يصبح كلّ شيء على ما يرام. أغمضنا عيوننا، وأصغينا إلى الأصوات التي أرادت أن تتخلص منه فحسب».

صمتت لبرهة طويلة، لم يتفوه خلالها أبي بشيء. استطعتُ أن أرى أمّي وهي تمسح دموعها.

* «ليس من الشهامة أن تغضب على الشباب». تواصل الكلام «حاول النظر من زاوية نيكلاس، إنه جديد على المدرسة. كيف ستكون ردة فعل زملائه في الفصل لو علموا أنه يرافق أحد تلاميذ مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة؟ سيصبح دجاجة للنتف بقية حياته المدرسية».

لوّحث بذراعيها. هذا ما يفعله المرء عند الشعور بالإحباط.

* «إنها إشارة شؤم لما وصلت إليه حال يوحنّا حين نعلم أن نيكلاس بعد شهرين يفكر في التحدث إليه حين لا يراه أحد. وإن التلاميذ الآخرين لا يقبلونه في صفوفهم».

ساد الصمت عليهما من جديد. انسحبتُ قليلاً لئلا يرياني. ظلَّ أبي واقفاً، ينظر إلى أمي.

- «ولِمَ لم تقولي شيئاً من قبل؟».

* «لا تزال لدي قناعة بأن يوحنّا سوف يصبح له أصدقاء في المدرسة. بالرغم من مرور عامين. وبالرغم من أنني أعلم أن هذا لن يحدث».

لم يرد أبي عليها. وقف ساكناً ينظر إليها للحظة. وذهب بعد ذلك إلى المرآب حيث يحفر الخشب. ويحفر أحياناً طيوراً جميلة، أو سكاكين الزبدة. ويقوم بالحفر في مرات أخرى إلى أن تنتهي الخشبة.

*

لم أعتقد أن نيكلاس سوف يتكلم معي ثانية بعد ما قالته أمي.

لكنها هذا المرة كانت حقاً على خطأ. استمر في ذلك، رغم أنه استغرق عدة أيام حتى جاء ثانية وأراد الجلوس معي.

- «هل يمكنك أن تساعدني في شيء؟» طلب.

* «نعم، يمكنني». قلت له.

- «وحتى في حال لم تتمكن من ذلك، فإنني سأقوم به بنفسي».

كان يبدو غاضباً.

* «بمَ ستقوم؟» قلت له بهدوء، إذ عليّ الهدوء حين يكون الشخص المقابل لي غاضباً.

- «أقول.. فكّرتُ في إمكانية أن نجرّب مرة أخرى ما قمتم به مع خرطوم الإطفائية. أي، أنا أستطيع فعله بنفسي، لكنها كانت فكرتك على ما يبدو، لهذا... أجل،

ينبغي أن تشاركنا».

* «حسناً»، قلث، فانحسر غضبه بعض الشيء.

- «هل تريد القيام بذلك اليوم، أم ننتظر عدة أيام؟»

* «يمكننا فعلها اليوم» قلث له.

*

ذهبنا ذلك اليوم معاً من موقف الحافلات إلى المدرسة.

وهذه هي أول مرة نصبح فيها صديقين.

الفصل السادس عشر

دلو النعامة

بدأ الأمر من جديد في شيليفتيو. أخذ يوحنّا ونيكلاس بتكرار نفس الحوادث التي عادت بالكثير من المشاكل والآلام علينا في المرحلة المتوسطة.

شرعا بخرطوم الإطفائية. وأتبعاه بكرة الثلج في غرفة المعلمين بعد يومين. كان في شهر سبتمبر حين أعادا قصة كرات الثلج، بعد تبولهما عليه. أخطأ يوحنّا التصويب، مع ذلك واصل الشغب.

عاد كلّ شيء.

*

تمسي حياتك أحياناً أكذوبة، إذ يصادف أنك تلمح خيوط الحقيقة للحظة، وترى أين الخطأ الذي تؤدي إليه، وأن لك الخيار في إيقاف ما يجري. إنه في الواقع سهل للغاية. وتقف مع ذلك، تنظر مكتوف اليدين. تختار أن تُستهلك.

*

يتبين لي في أحد اجتماعات الأزمة فجأة كم أنا في وضع محرج. أجلس هناك محصورة في غرفة اجتماع صغيرة في هذه المدرسة الخامدة، مع زوجي وناس أعرفهم كألقاب وعناوين فحسب. يجلس الولد الذي نتناقش حوله في الممر الخارجي يطالع مجلة سكوتر. كان ينبغي في الواقع أن لا يحضر إلى هنا، لكنه لم يشأ أن يُترك وحيداً في البيت، فما العمل إذاً؟

هذا هو الاجتماع الثالث. أو ربّما الرابع؛ تتداخل الاجتماعات في بعضها لأنها تسترشد بنفس النموذج. تتم ملاحقة حلّ واحد على الرغم من أن الجميع يشعرون بعدم جدواه، إذ ينبغي على المدرسة التي نجلس فيها، أن تكون هي الحلّ.

أخذنا مقاعدنا حول إحدى الطاولات، حيث يتحدث رجل يطلق عليه المرشد الاجتماعي. تتكرر على مسامعنا كلمات قيّمة وفارغة بدون التأكيد عليها.

أنا جالسة أنظر أسفل الطاولة. أتابع بإصبعي خطاً عميقاً بقلم الرصاص على حافتها، إلى الأمام والخلف.

يصبّ الخط في أحد الأسماء. اسم حقيقي. اولوف. أو اولوو، لا يمكنني الحسم. أجلس لوقت طويل بينما المرشد الاجتماعي يتكلم. توصلث إلى أن اولوو كان أولاً هو المكتوب، وقد غيره أحدهم فيما بعد إلى اولوف.

ولكن حتى هناك يعود كلّ شيء تافهاً مرة أخرى. أكاد أرى الآخرين يشحبون.

لسث الأمَ الأولى التي تجلس في هذا الغرفة لأنها تعاني من مشكلة. فقد عُقدت اجتماعات هنا لا حصر لها. ففي مواليد كل سنة ثمة شخص مثل يوحنّا على الأقل، شخص غير متلائم. من هنا يأتي الإحباط في صوت بقية الحاضرين.

اولوو يصبح اولوف، فيوحنّا. إنهم يعرفون ذلك. فلماذا يحارب البشر إذاً؟ وكيف؟

*

وفجأة يتضح بشكل طبيعي ما يجب عمله. هذا هو ما كان في الواقع طوال الوقت، وقد أجبرت نفسي على غض الطرف عنه.

أنتظر برهة ريثما ينتهي المرشد الاجتماعي من كلامه لكي أعلن للآخرين عن رؤيتي. لكنه حين يتوقف عن الكلام، تسبقني المديرة في الكلام. تقول نفس الشيء الذي قاله المرشد الاجتماعي.

كأنّ الغرفة التي أجلس فيها تتغيّر. لم يعد الآخرون يشحبون بعد. كلا، إنهم يتحوّلون أمام عينيّ إلى نعامات كبيرة. طيور كبيرة حمقاء داخل سراويل وسترات ترفرف بالأجنحة لكي تظهر مدى اهتمامها والتزامها بواجباتها. لكن أحدهم وضع في وسط الطاولة دلواً كبيراً مملوءاً بالرمال قد أدخل الجميع رؤوسهم فيه.

أنهض بعجلة.

«اعذروني». أقول لهم. «إن صحتي ليست على ما يرام». لم أكن أكذب عليهم. أخرج من الغرفة سائرة خلف مساند ظهر المقاعد. لكنني لا أذهب إلى الحمام. أقف في الممر لأتأمّل يوحنّا. هو جالس يقرأ، غير مبالٍ إطلاقاً بالاجتماع. ولم يبدُ عليه أي أثر من أننا نتحدث عنه. يرفع رأسه حين أدق الباب للمرة الثانية.

«هل انتهى الاجتماع؟». يسألني.

«لا، ليس بعد».

فيعود إلى مجلته.

ليس ثمة أسهل مما يجب عمله. من الطبيعي جداً. لماذا لا أحد آخر يرى هذا؟

و هو كالتالي:

حين يكون يوحنّا ونيكلاس معاً تحدث المشاكل. وحين يكونان بعيدين عن بعضهما البعض لا يحدث شيء من هذا القبيل. وهذا يعني أن الطريقة الوحيدة لينتهي هذا الشيء هي فصلهما عن بعضهما. لا أن نمنعهما من اللقاء، فهذا غير ممكن. لكن يمكن تحديد لقاءاتهما. شيء قبيح، لكنه إجراء لا بدّ منه. ولن يكون صعباً. بمجرد تغيّب نيكلاس عدة مرات، سيقوم يوحنّا بتحمّل مسؤولية ما يتبقى. فمن السهل تطويعه.

*

أتقدم منه. أفتح فمي، أختار من بين الكلمات. لكنه يسبقني.

* «ماما، يمكن لنيكلاس أن يزورنا ويجرب زلاجة الثلج؟» يسأل بدون أن يرفع رأسه عن المجلّة.

- «ماذا؟» أقول له على الرغم من أنني سمعت سؤاله.

* «ممكن لنيكلاس زيارتنا وقيادة زلاجة الثلج؟» يكرر سؤاله.

- «لكن لا يوجد ثلج كما تعلم» بعصبية أجيبه.

يضحك كأنني قلت شيئاً أحمق.

* «كلا، أقصد حين يأتي الثلج؟».

لا أدري ما ينبغي أن أقول.

- «هل قال إنه يريد هذا؟».

* «لا. إنه يريد المجيء لزيارتنا فقط. لكنهم لا يملكون زلاجة ثلج، ففكرت أنه سيفرح لو جرّب زلاجتنا».

أحياناً تصيب كلماتنا الهدف. أو لا تصيب. المسألة متوقفة على كيفية النظر إليها. لو فتحت فمي قبل ثانيتين، لكان كلّ شيء متغيراً اليوم: لكان ليوحنا صديق. كان هذا هو ما قاله.

كيف يمكنني أن أتخلى عن هذا؟

*

لا أقول شيئاً. أبقى لبرهة. كأن المرارة عادت، هذه المرة اختلطت بالأكاذيب.

أتنفس بعمق.

«سينتهي الاجتماع حالاً». أقول قبل أن أدخل ثانية.

*

الآخرون جالسون ورؤوسهم لا تزال مطمورة في دلو الرمل. أجلس في مكاني، أنظر إلى الأعناق الطويلة المنحنية.

وهكذا أدسّ أنا أيضاً رأسي في الدلو.

*

الرمل باقٍ في الآذان ونحن في السيارة في طريقنا

إلى البيت. ثمة قرقعات في الجمجمة طوال الليل. وستبقى حتى الصباح القادم. أحاول العيش كالمعتاد، لكن لا يمكن. أجلس في حجرة الغسيل.

الفصل السابع عشر

السقطات الجديدة

حاولتُ إقناع نفسي بأنهما كانا يتعاونان، وأنَّ يوحنا كان يساعد نيكلاس. فكرت في أنهما كانا في حاجة إلى بعضهما البعض. كلاهما كان مهمشاً ومطروداً، وإن جميع السقطات كانت مجرد محاولات لإثبات حضورهما، وجلب الاهتمام بهما، وأن يكونا شخصين مهمين.

السقطتان اللتان لم تندرجا في هذه المحاولات هما السقطتان الجديدتان اللتان حدثتا في شيليفتيو. كانت الأعمال الأخرى تكراراً لما سبقها من أعمال الشغب. إلا أن الأخيرتين كانتا مختلفتين. هذا ما لم يفهمه سوى ليئارت وأنا. وقد كان في الواقع مثلما فهمناه.

مونا

السقطتان الجديدتان حدثتا في يوم واحد، الجمعة قبل بدء العطلة الرياضية. كان نيكلاس العقل المدبّر وراء الحالتين. الاعتداء الأول ارتكباه من أجل نيكلاس، لكن الثاني كان هدية قدّمها ليوحنّا.

كانت الصورة واضحة جداً.

*

يجلسان على كنبة مهترئة في ممر يقع على الطرف في مدرسة بريئان الأساسية. المدرسة فارغة إلى حدّ كبير. كلّ منهما يرتدي معطفاً. تشير ساعة حائط دائرية إلى الساعة 15.35. لم يبق في المدرسة سوى التلاميذ الذين ينتظرون حافلة الريف. هما صامتان. أرى نيكلاس غير مرتاح في جلسته، يلعب بعلبة طعام معلب. يوحنّا جالس بهدوء إلى جانبه، وينظر إلى الفضاء بدون معنى.

بعد برهة يرمق نيكلاس ساعة الحائط. يقوم بتدوير العلبة بضع دورات قبل أن يحشرها في جيبه. كأنه يتحكم بنفسه. يربت على كتف يوحنّا.

«أنت، هيّا». يقول.

يمضيان في طريقهما. أشاهد في فيلمي المتخيل ابني ونيكلاس وهما يتجولان في المدرسة. المشهد طويل، والممرات التي يتبعانها مهترئة ومخربشة. هكذا أشعر بالظروف التي فُرضت عليهما.

يمرّان بغرفة الاستراحة الفارغة، حيث كان ينبغي عليهما الجلوس فيها لينتظرا، لكنهما لم يفعلا ذلك، لأنهما يعتقدان أنه غير مسموح لهما بدخولها بالرغم من أنها كانت فارغة. عليك أن تكون أحد المعيّنين في المدرسة، أو عندك صفة معينة ذات صلة، ليحق لك الجلوس هناك.

كان نيكلاس ضمن من لهم هذا الحق. كان هكذا على الدوام، ولا يمكن تغييره. هذه القاعدة تتجدد كل عام.

يمضيان إلى استعلامات المدرسة، حيث تجلس امرأة متعبة خلف نافذة زجاجية. لا يبدو عليها أنها تقوم بأعمال متميزة، سوى مراقبة الساعة للتأكد من انتهاء يوم العمل.

يتقدم نيكلاس من النافذة.

«مرحبا، كنت في الصباح هنا واستعرتُ المفتاح الرئيس للخزانة لأنني كنت نسيت مفتاحي في البيت». يقول لها. «والآن أريد أن أضع الكتب فيها لكي لا آخذها إلى البيت خلال العطلة».

تتنهد المرأة. من المفترض أنها ستغلق المكتب وتذهب معه لترى إن كان سيستخدم المفتاح لخزانته فقط. لكنها التقته في الصباح وتعرف أن كلامه صحيح. والمسافة طويلة إلى الخزانة.

تعطيه المفتاح.

«ارجع بسرعة». تقول له.

أتابعهما مرة أخرى، هذه المرة من الأمام، ومن مكان قريب إلى حدّ ما. أرى وجهيهما. الجدران المهترئة تنساب على الخلفية.

يمسك نيكلاس العلبة مرة أخرى. أرى الآن بيده علبة سردين مختمر. يمسكها بيد ويلتقط مجموعة مفاتيح بفتاحة العلب باليد الأخرى.

*

يصلان إلى ممر فيه كنبة وخزانة صفراء. إنه نفس المكان حيث انتظرا من قبل. يمرر نيكلاس العلبة وفتاحة العلب إلى يوحنّا ويدعه يحاول فتحها بينما هو يتفحص الخزانة. يفتحها جزئياً ليتأكد من أصحابها.

حين تنفتح العلبة يستعيدها ليخرج السمك منها ويضعها في الأماكن التي حددها.

*

ثمة سبع خزانات يختارها، اثنتا عشرة سمكة. مثلما جرى مع نقود المرأة، فلا يمكن تقسيم السمكات باثنتين لكل خزانة. وما لا يمكن التأكد منه في الفيلم إن كان يحدد أي الخزانات التي يضع فيها سمكتين، أم أن الصدفة هي التي كانت تحكم.

وفجأة يغير رأيه. يفتح عشوائياً خمس خزانات، ويضع السمكات الفائضة فيها. يغلق أبوابها ويقفلها بالمفتاح.

يأخذان بالعودة، ويرميان العلبة في طريقهما في

سلة نفايات. يغسلان أيديهما. يسلّمان المفتاح. لم يبق الآن أمامهما سوى أن يسري مفعول السمكات خلال العطلة.

وبهذا تم إنجاز الاعتداء الأول. والآن تقع البقية على عاتق يوحنا.

يمران عبر ممرات المدرسة، خارجين من مدخل صغير، بمحاذاة المَرأب الذي يكاد يكون فارغاً. يسيران باتجاه نافذة، تجمدت النباتات التي تحتها.

يتفحص نيكلاس الوضع حولهما، يحشران نفسيهما في النباتات تحت النافذة. يدفع نيكلاس الإطار، فيرتفع. كان يوحنًا أثناء النهار قد فتح القفل، مثلما قال له نيكلاس. يتعاونان في التسلق للقفز إلى الصالة.

*

الصالة التي يدخلانها صغيرة نوعاً ما، فيها عشر طاولات مدرسية. يوجد في المقدمة لوح كتابة نظيف. يقفان ليلقيا نظرة لبرهة. وبعد ذلك يلتفت نيكلاس ليوحنًا:

«افعل ما تريد».

لا يفهم يوحنًا في البداية ما الذي عليه القيام به. يتقدم من أحد المقاعد، يفتح الغطاء، ينظر بداخله، ثم يغلقه ثانية. يذهب إلى مقعد آخر، ويكرر الفعل نفسه. وبدون إنذار مسبق يقلبه رأساً على عقب، فيسقط المقعد محدثاً ضجيجاً. تنهار الكتب على الأرضية. يقف برهة لينظر إلى الفوضى التي خلقها. يذهب بعد ذلك إلى مقعد آخر، يقلبه كذلك رأساً على عقب. يقوم هذه المرة بركل الكتب، فتتساقط على الأرض.

يبدآن العمل. يساعده نيكلاس. يقلبان، يركلان،

يمزقان ويخربان كل ما يواجهانه من أشياء.

وفجأة يوقف يوحنّا صديقه.

- «على مهلك. ليس هذا المقعد».

* «لمَ لا؟».

- «لأنه مقعدي».

يفعل نيكلاس ما يقول له يوحنّا. يدع المقعد ، وبدلاً منه يذهب إلى مقعد آخر فيقلبه. لا يوضح ليوحنّا كيف يبدو المشهد في الصالة والمقاعد كلها مقلوبة، عدا مقعد واحد قائم بأناقة في مكانه. وبالرغم من أن نيكلاس يفهم هذا، إلا أنه يفعل ما طلبه يوحنّا.

*

كيف توصل نيكلاس إلى هذه الفكرة؟ حاولتُ أن أفهم ذلك. لم يكن لدى يوحنّا أي جواب حين سألته أثناء تقديمه إفادته. هل كان يعتقد أنهم سيعرفون من فعل هذا بكل الأحوال؟ أم أنه فعل هذا لأنه كان هديته إلى يوحنّا، وكان على يوحنّا القيام بما يريده منه أن يفعل؟

ربّما ظنّ أن يوحنّا كان من الغباء إلى درجة أنه سيلقي باللوم على نفسه؟

توصلتُ إلى أنهم أرادوا إيصال رسالة تبرر فعلتهم. كلا السقطتين كانت رسالة.

عمّا قريب سيقفان وسط الصالة، يتأملان أفعالهما. الكتب والأوراق منتشرة في كل مكان. ومقعدان من

المقاعد مكسوران.

تعمّ الفوضى المكان كلّه، عدا جزيرة صغيرة من الانتظام قائمة بعيداً في الخلف.

اختار نيكلاس اثني عشر واحداً من زملائه في الصفّ وأعفى الباقين. لم يعفِ يوحنا أحداً. لماذا لم يثره أيّ واحد في اجتماع الأزمة بعد انتهاء العطلة؟

الفصل الثامن عشر

وهذه هي النهاية

مونا

تنساب السيارة في الحركة. وسواء سارت بسرعة فائقة أو ببطء شديد فإنها تسير إلى أمام ومن حولها أشجار الصنوبر. إن الحركة شيء مثير للعجب. إنها تشير إلى التغير، وإلى أنك في طريقك إلى مكان ما لم تصل إليه بعد.

وحين تسير في الطريق لن تكون أمامك سوى الاحتمالات، فقد تركت المشاكل وراءك، ولم تظهر المشاكل الجديدة بعد. وطالما تتحرك، فالشر بعيد عنك.

لكننا نقترب من شيليفتيو. والمشاكل كامنة لنا هناك بانتظارنا.

أفكّر في الخيط من جديد. كيف يتلوى، وماذا يأخذ معه حين ينجذب إليه أخيراً كلّ شيء. أفكّر في حبّة البطاطا التي تغدو واضحة بشدة هناك. هكذا يلتف الخيط حولها.

اكتشفها أبي ويوحنا. ولأنّ أبي كان مريضاً، فلم يقوَ على أن ينسج حولها قصة، ففكّرتُ في إمكانية تصويرها وإرسال صورتها إلى الجريدة. وهذا هو ما حدث، بالضبط.

لو لم يحصل واحد من تلك الأمور فحسب، لكانت المرأة العجوز لا تزال حيّة ترزق اليوم.

ربّما لا تصدقني، لكن هذه هي الحقيقة. يجب رؤية العقدة الأخيرة للخيط لكي تفهم.

مونا

إنه الصباح. أجلس عند منضدة المطبخ وأتصفح (نوزّان).أصل إلى صفحة العوائل حيث صورة بالأبيض والأسود تحتها تعليق يروي أن يوحنّا البالغ من العمر سبعة عشر عاماً وجدّه فالتر قد نبشا حبّة بطاطس كبيرة تزن **1.4** كيلوغراماً في ستروموفورس، بوليدن. وكانت مونا والدة يوحنّا أيضاً معهما.

ألحّ عليّ يوحنّا أن أكتب لهم اسمي أيضاً، على الرغم من أنني لم أكن معهما في تلك الأثناء.

«كانت هذه، طبعاً، فكرتك». أصرّ على الادّعاء.

لم يكن مكتوباً في أي مكان أن الجدّ توفّى في اليوم التالي. وأنّه التقط الصورة وذهب إلى البيت ليستلقي، وخلال الليل تجشم العناء لإرسالها إلى حفيده عبر البريد الإلكتروني. لم تكن ثمة حاجة لأن يقوم بذلك، إذ كان عليه أن يستريح، إلا أنه ارتاح على أية حال. وليس ثمة شيء عن أن هذا كان ربّما هو آخر ما فعله في حياته. ومن المحتمل أن تلك السطور قد كتبت عنه وهو ميّت. لا شيء يذكر عن مثل هذه الأمور.

أقوم بقراءة الخبر القصير أكثر من مرة. توجد إلى جانبه صورة كبيرة لجزرتين نمتا وأخذتا تشبهان جسد امرأة (مفرط في البدانة ومشوّه). أرسلتها آن هيلين نيلسون من (ميكله) للنشر.

أظن أن ثمة اختلافاً كبيراً في كيفية رؤية الأشياء.

بالنسبة إلى يوحنّا، ومن المحتمل إلى آن هيلين من ميكله، إن نورّان شيء كبير، جريدة تنشر أشياء مهمة يقرأها الجميع. أما بالنسبة إليّ فإنها مجرد جريدة محلية صغيرة في منطقة منسية من العالم، شيء أواصل الاشتراك فيه لأنني أريده حجة للنهوض صباحاً ومحاولة إلقاء نظرة على السنورات.

*

لا حدود لفرحة يوحنّا حين أريه الصورة.

* «هذا طبعاً..!» يصرخ. «أهذا...؟».

أومئ برأسي.

* «تم نشرها!» يصرخ. «تم نشرها!».

- «نعم، إنها منشورة في الجريدة». أقول له. «هل قرأتَ التعليق المكتوب تحت الصورة؟».

* «نحن موجودون في الجريدة!» يصرخ حين ينظر في الصورة.

- «نحن موجودون في الجريدة!».

أبتسمُ، لأنه من الصعب أن تقاوم مثل هذه الفرحة مطلقة العنان.

- «نعم، فإنّك لا تصبح شهيراً كلّ يوم»، أقول بتباهٍ وفخر.

كان سهلاً العيش في العالم لو كان للجميع نفس مواقف يوحنّا وردود فعله أحياناً.

* «يجب أن نعرضها على أبي!» يعلن يوحنّا.

- «لكنه، كما تعلم، في العمل». أحاول تهدئته.

* «إذاً، نتصل به!».

- «إنه على الأرجح يقرأ الجريدة في فترة الاستراحة». أقول له ذلك، على الرغم من أنني أعرف أنه لا يقرأها.

*

المشكلة هي أن حماسة يوحنا لم تخفت. إنها، بلا شك، انحسرت، دون أن تختفي. أراد أن يقتني العدد لأنه لم يرد أن يقص الخبر من الجريدة، أراده أن يبقى في سياقه. وفي المساء حين أراد الذهاب إلى بوليدن للقاء نيكلاس، دس الجريدة وحبّة البطاطا في جعبة الظهر، وركب دراجته متوجهاً إلى هناك. أراد أن يطلع الآخرين على الخبر، ولم أستطع إقناعه بترك الجريدة في البيت.

ظلّ يحمل على ظهره الجريدة وحبّة البطاطا لمدة أسبوع. تخلص من حملهما حين عاد إلى البيت ومعه نقود المرأة حيث فقدت حبّة البطاطا أهميتها.

يوحنّا

كنا أنا ونيكلاس وسطفان وميكائيل في ساحة المدرسة كالعادة. أنا ونيكلاس جالسان على المقعد، وكان سطفان وميكائيل يتصارعان على بقعة الثلج عند أشجار الورود، لكنهما توقفا عن المصارعة حين وقع نظرنا على السيدة العجوز في الشارع الخلفي وهي تمشي ببطء.

*

كانت في الواقع تمشي ببطء شديد. كانت تخطو خطوة صغيرة، وتدفع الكرسي المتحرك إلى أمام، فتتقدم بذلك مسافة ديسمتر واحد. أخذنا نضحك بصوت مكبوت قبل أن تسقط أصلاً، لأن ذلك بدا لنا ممتعاً جداً.

حين سقطت، أخذنا نضحك ملء أشداقنا، لأن المرء لا ينبغي له أن يسقط حين يمشي بهذا البطء. لا، لا ينبغي هذا.

*

ضحكنا طويلاً. وتوقفنا فيما بعد عن الضحك لأنّ السيّدة العجوز لم تنهض فلم يعد الموقف مضحكاً.

حرّكت ذراعيها قليلاً، لكنها لم ترفع نفسها. عجزت عن ذلك تماماً، وقد انقلب الكرسي، وسقط على جنبه.

تبادل سطفان وميكائيل النظر، ثم أخذا ينظران إليّ وإلى نيكلاس. عمّ السكوت لبرهة. إذّاك قام نيكلاس

وسار باتجاه الشارع الخلفي.

«ألا تأتون، أم ماذا؟». قال.

*

كان السيّدة العجوز مرتدية ملابس زرقاء. لمحتُ هذا حين وصلنا المكان. وقفنا ننظر إليها لبرهة طويلة. كانت حقيبتها اليدوية ملقاة بجانبها. كانت مصنوعة من الجلد ومليئة بالأشياء.

«ما زالت حيّة؟». سأل ميكائيل.

«نعم، لقد سقطت فحسب». قال نيكلاس. «العجائز يسقطون غالباً. ينكسر لديهم عنق، عظمة الفخذ».

«ما هذا؟». تساءل سطفان.

«حقاً، لا أعرف. عظمة، أو ما شابه».

نظرنا إليها لبرهة أخرى، لم نلمح أيّ عظم مكسور.

«ما الذي علينا فعله؟» سأل ميكائيل.

بدا نيكلاس حائراً.

«آه... ينبغي أن نساعدها على النهوض». قال.

تقدّم منها وتحسس ذراعها، لكنها سحبتها بالرغم من أنها كانت تبدو غائبة عن الوعي.

«كيف حالك؟» سألها. لكنها لم ترد، مما أقلق نيكلاس.

خطا إلى الوراء عدة خطوات، فاصطدم بالكرسي المتحرك فسقط هو أيضاً. وقد بدا هذا ممتعاً بنفس الدرجة حين سقطت السيدة العجوز، لكننا الآن توقفنا

عن الضحك.

نهض. تلطخت مؤخرته ببقعة ثلج مبللة. حين لاحظها أمسك بالكرسي ورفعه إلى الأعلى.

«لِمَ يحتاج المرء إلى شيء مثل هذا، بحق الشيطان؟». قال ذلك، وقذف الكرسي على الطريق. ضحك كلّ من سطِفان وميكائيل. ذهب سطِفان إلى الكرسيَ، وأخذ يمشي متكئاً عليه، مثلما كانت السيّدة العجوز تفعل قبل قليل. ببطء، مرتعشاً، كأنه عجوز أيضاً.

«آه، كم أنا عجوز!». قال بصوت مصطنع.

«سأسقط بعد قليل».

رأى ميكائيل أن ما فعله سطفان شيء ممتع، وأراد أن يجرّبه أيضاً. بدا أنهما نسيا أن السيدة العجوز ملقاة هناك.

أنا ونيكلاس قمنا بمشاهدتهما لبرهة، ثم نظرنا إلى السيدة العجوز ثانيةً.

«ننسحب؟»، سأل نيكلاس. «سيمرّ بلا شكّ غيرها عما قريب».

هززتُ رأسي.

«لا يمكن. ذلك، سوف تعاني».

هزّ رأسه.

«ما من أحد في هذا الزقاق ليراها». قال.

«يمكنها أن ترقد هنا».

وقفنا برهة أخرى ونحن ننظر.

«كلا، لا أحد يراها هنا». كرر نيكلاس. «علاوة على هذا، إن حقيبتها ممتلئة».

«نعم». قلتُ.

«السيدات العجائز لديهنّ دائماً نقود كثيرة في حقائبهن اليدوية».

نظر إلى وجه السيّدة العجوز، لكنها كانت مغمضة العينين، فالتقط الحقيبة.

«لن آخذ شيئاً، أتفقد فحسب».

توقف سطفان وميكائيل عن اللعب بالكرسي حين رأيا نيكلاس يأخذ الحقيبة. تقدما منّا.

*

كانت في الحقيبة اليدوية أشياء كثيرة. صور، نظارات وأدوية وما شابه، ومحفظة نقود. أخذ نيكلاس المحفظة وفتحها. فبرزت أوراق نقدية.

«يا للعنة...» قال. «إنها من فئة الألف كرونة!».

بدا سطفان وميكائيل أيضاً مضطربين.

«أعيدها إلى مكانها؟». سأل نيكلاس ونظر إلينا.

بقينا صامتين.

«لا». قال سطفان بعد برهة.

حار نيكلاس. ثم أخذ ورقة نقدية واحدة من فئة الألف كرونة، دسها في جيب جاكيتته. بعد ذلك أعطى واحدة لسطفان، وواحدة لميكائيل وواحدة لي، لكنه بعد

ذلك بدا غريباً. أرانا أن العملات الورقية نفدت.

«نحن مضطرون للذهاب لنصرف النقود، وإلا ماذا». قال ذلك بينما كان يعيد الحقيبة إلى مكانها، ووضع الحقيبة على الأرض بجانب السيّدة العجوز.

«والآن لننسحب. ننسحب ونتصل لطلب المساعدة».

لم يفهم أن لا حاجة للاتصال بأحد. لقد عرفت ما يجب عمله.

لينَارت

يتعلّم المرء من التجارب. من الخبائث. هكذا. وحتى مونا أقرت بهذا. هذا هو سبب استمرار الشر دائماً. لن يرضى الله عنا أبداً. على الرغم من أنه من الواضح أن كلّ شيء سيسير وفق مشيئة إلهية.

لكن لا تجري الرياح بما تشتهي السفن. ولا يحدث شيء حسب رغبتك.

يبعث الله الشرور لكي يتعلم الإنسان، ويصبح أفضل لأنه يعاني كل يوم. هذا ما يجب أن يكون. وإلا كيف يكون التصرف؟ ألا يمكن أن يكون كلّ شيء سينتهي لأن الشيطان هو الغالب طوال الوقت؟

لا، هذا لا يستقيم. إن كان الإنسان كاملاً وعالماً، فلا يمكن أن يخسر. حتى مدفأة في سيارة أمازون.

قريباً سيصبح الله والشيطان نفس الشيء بالنسبة إلينا نحن البشر. يبعث الله الشياطين لكي نصبح أفضل، ويفعل الشيطان هذا لأنه شرّ. لكن النتيجة لنا نحن المتلقين هي نفسها.

كيف يمكن لإنسان ضئيل تمييز الفرق؟

تأتي السعادة

تذهب السعادة

وأنت باقٍ أبانا

هكذا يجب أن يكون. بغضّ النظر عما يحدث، بغضّ النظر عما يفعله أولادك، يبقى الأب أباً.

لا يجوز إجراء أيّ تغيير على هذا.

انحنيت على السيدة العجوز.

«هكذا، ليس هناك داعٍ للخوف». قلتُ بينما أنزّل حقيبة ظهري لأفتحها. «بعد قليل تنتهي آلامك نهائياً».

«ماذا تفعل بحق الشيطان؟» قال نيكلاس، لكنني تابعت عملي.

«أحياناً يتوجب على الإنسان أن يفعل أشياء ضد رغبته». أوضحتُ.

لم تنظر إليّ حين طوقت كتفيها بيدي كأنني أضمها إلى صدري، بينما رفعتُ حبّة البطاطا باليد الأخرى.

*

ضرب أبي الثعلبة عدة مرات. كنتُ أحتاج إلى أن أضرب عدة مرات قبل أن أتأكد من أن ذلك انتهى.

*

كان الرعب بادياً على كل من سطفان وميكائيل. لم يكونا كبيرين بالعمر لكي يفهما جيداً. كان الحزن يستبد بنيكلاس أكثر من الرعب. هذا ما شعرتُ به.

«إنها لا تزال حيّة»، قلتُ لسطفان وميكائيل. «في السماء. أحياناً يجب أن يفعل الإنسان أشياء لا يريد فعلها، لأنها الشيء الصحيح للقيام به. كان هذا أفضل شيء للسيدة العجوز للتخلص من معاناتها».

هزّ نيكلاس رأسه فحسب.

«تعال، نهرب». قال. «يجب أن نسرع. ونأخذ معنا

الحقيبة. بصمات أصابعي موجودة عليها».

*

سرنا بسرعة في الشوارع الفرعية فقط، ثم بدأنا نركض.

أرى أنه كان ينبغي علينا أن نقوم بالعكس.

شكراً

إلى سارا، نيلس، أميل، الزابث، دان –اوفه وهانس فاساينج،

السيدة كاتبة الطابعة، كريستيان وآخرين في دار نشر والستروم وويدستراند.

أنطون ماركلوند

مواليد عام 1957.

يقيم في اوميو. خريج معهد إعداد المعلمين لكنه يعمل كمساعد شخصي منذ سنوات عديدة. يعود أصل رواية «أصدقاء الحيوان» إلى قصة قصيرة حازت على إعجاب القراء، كتبها انطلاقاً من الخبرات التي تراكمت عنده من عمله مع أشخاص يعانون التوحّد والاضطرابات العقلية.

حميد كشكولي

مواليد العراق.

يكتب بالعربية والكردية، مقيم في السويد منذ 1990. صدر له ديوان شعر وله مجاميع أخرى تحت الطبع.

عضو اتحاد أدباء جنوب السويد، مترجم من وإلى اللغات العربية والسويدية والفارسية والكردية والإنجليزية.